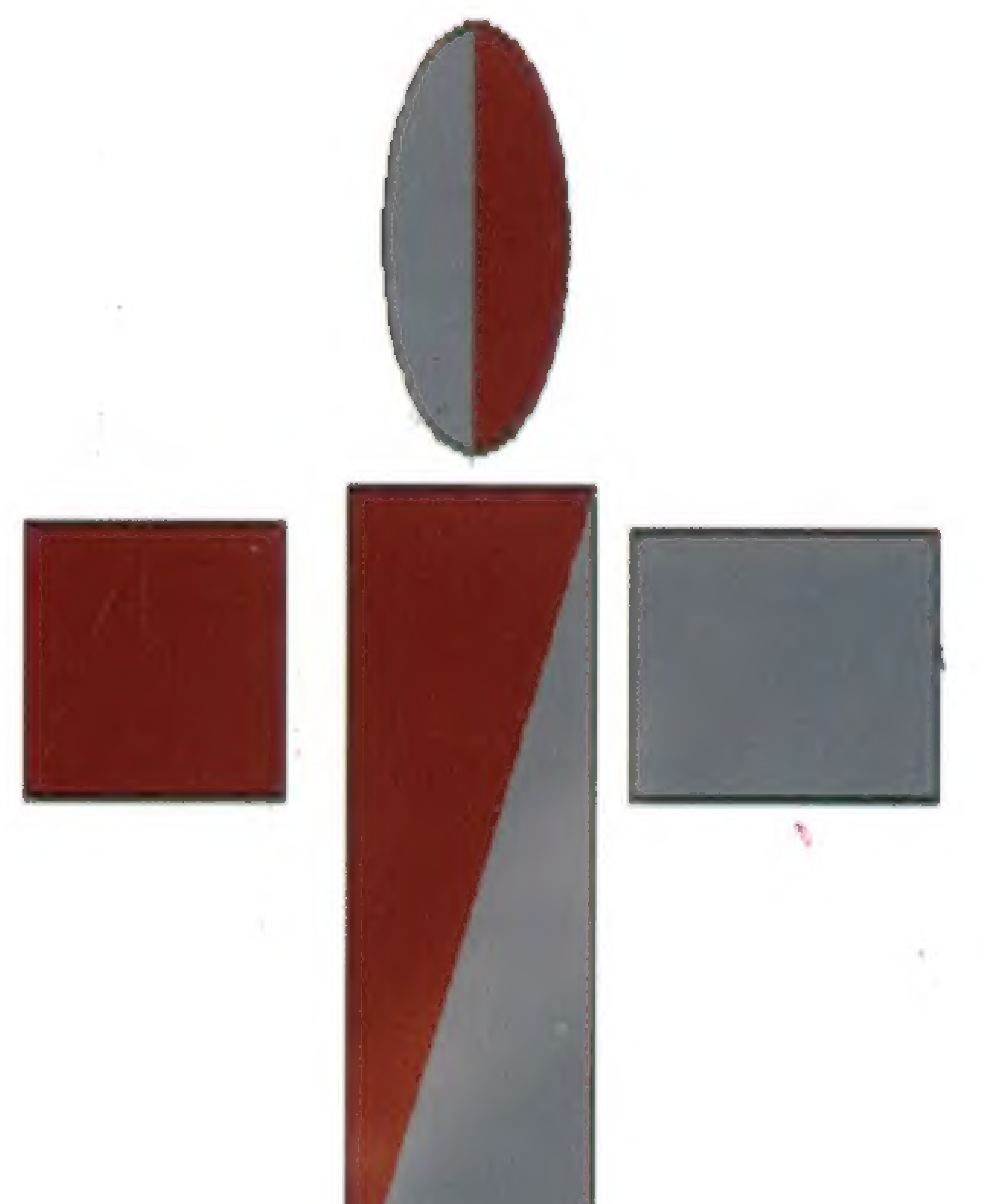
شبح النادي السويسري

سيِّد محمد قطب















شَبح النَّادي السويسريّ

شبح النادي السويسري
رواية
سيد محمد السيد قطب
الطبعة الأولى – القاهرة
١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م
دار الهاني للطباعة والنشر ت ٤٤٤٤٢٠٥٥

الغلاف د.علاء عبد المنعم
رقم الإيداع ٢٠١٠/١١١٦١

سيِّد محمَّد قُطب

شَبح النَّادي السويسريّ

لأن كل شيء هنا حقيقي تماما.. فقد كنت مضطرا لتعديل طفيف في الأسماء.. في البداية قلت من يهمه أن تكون كما هي أو أن تكون مختلفة.. لكنني بعد معايشة الأحداث من جديد لحظة الكتابة وجدت أنني لا أستطيع بحال من الأحوال الاحتفاظ بالأسماء مثلما كانت.. لأن هذا يعني التنكر للصحبة.. لا أدري لماذا.. كأنني أستغل معرفتي بهم واطلاعي على أسرارهم..

ستظل أسماؤهم في عالمنا الذي لا يمكن إعادته كما هو.. ستظل أيامنا في الصندوق الأسود.. لكن هذا تسجيل لما كان يدور.. تسجيل حصلت عليه بمشقة من آلاف الصفحات التي تناثرت في نحو "دستة" من الحقائب المحشوة بكشوف أعمال السنة وخطط لأبحاث لم تتم وأسماء الغياب والحضور وقصائد وأغنيات ومقالات كتبها طلاب على مدى أعوام طويلة ونماذج أوراق إدارية لم أستطع أبدا كتابة بياناتها وبالتالي لم يتم تسليمها فأعتذر للسكرتيرة التي تقول لي كل يوم وهي تبتسم "طبعا لم تكتب النموذج.. أنا والله أكون في غاية السعادة حينما يسألونني عن أوراقك وأقول لهم لم يكتبها بعد.. أحس إنهم في غاية الغيظ مهما خصموا منك ساعات مكافآت

وحوافز لأن أوراقك ناقصة.. إياك تكتبها" وتنفجر ضاحكة وأنا أعتذر لها على أمل أن أنجزها في اليوم التالي..

جلست بين الحقائب وألقيت ما فيها وبدأت المطالعة.. الذي شجعني على الكتابة ذاك المسلسل الذي ألفته زميلتنا القديمة عن مجموعتنا.. كان جميلا مع أن فيه مبالغات وأشياء لم تحدث.. حتى أنا الذي أعرف نفسي لدرجة كبيرة وجدتني أقوم بأفعال لم تصدر مني أبدا وأقول كلاما لا أذكر أنه يطابق أسلوبي بحال من الأحوال.

كتبت وظللت غارقا في قصاصات لم أجد لها موقعا في هذه الخريطة فاحتفظت بها لعلني أفيد منها في عمل جديد.

ومع التعديل الطفيف جدا الذي حدث في الأسماء فأنا واثق أن صديقي العزيز الذي يحب "مدفعجي الشواكيش" سيجد نفسه بوضوح لأنني أهديه هذا العمل راجيا أن يعجب به ابنه الصغير "علي" الذي يجيد إعداد طبق "الفول بالدقة والشطة والليمون" في الصباحات الجميلة حين يستيقظ فلا يجد أثرا لتريف الأنف الذي يعاني منه مثلما كنت أعاني وأنا في مثل سنه

س. ق

طوابع ورغبات

"كلكم بخير.. ماما عندها مناقشة.. أنا لا.. حاجات بسيطة.. اتصلوا مرة واحدة الأول إن لم أتصل بكم لا أحد يسأل عني.. حاضر سأعمل "ساندويتشات".. أعرف طبعا ويمكن "أقلي بطاطس".. وعندي "كاتشب".. أنتم تعرفون أباكم يقوم بشغل البيت جيدا.. مع السلامة.. محمد رسول الله"..

تفتح "الراديو" على البرنامج الموسيقي.. ينساب الشجن الأندلسي من أوتار جيتار "رودريجيز" فتسري في أصابعك رعشة وأنت تفتح الخبز وتقطع الجبن شرائح دقيقة بيضاء وتبحث عن قطعة "بسطرمة" رقيقة جدا ينفذ منها شعاع النيون مضيفا للونها الأحمر الفاتح شفافية تسرح فيها عيناك لحظة قبل أن تنهض لتحضر العسل الذي نسيته..

تضع الملعقة في "البرطمان" الصغير لتخرج متثاقلة ينز منها القوام الأصفر المتماسك.. فترى فيه تجاوبا مع خفقات الأوتار القوية المشدودة وهي تضرب الأعماق البعيدة التي لا تعرف لها نهاية متمردة على حبسها في القمقم الزجاجي.. تمسك أمواج

الضربات بيدك المرتعشة.. تأخذ "الساندويتش" الصغير بين أناملك فتسري فيه اهتزازات أعصابك التي أثارها اللحن القديم.. وتراهم قادمين لاتدري هل انسلوا من عينيك أو من النافذة المفتوحة على كشافات نادي "ناصر" التي تبعث خيوطا ضوئية فضية تصل بينك وبين الملعب الصاخب.. تسبح في نهر النور الفضي نحلة شريدة انقطعت بها السبل تسمع طنين حيرتها وهي تدخل وتخرج عبر زجاجك الموارب..

يزداد الطنين ارتفاعا فيحيط بك من كل جانب ثم يخفت تدريجيا فتميز أصواتهم المختلطة ويتدفقون عليك بصخبهم وشقاوتهم.. بزي المدرسة "البيج".. دائما يجذبك لون "الأزرار".. تحب يكون مختلفا قليلا حتي يظهر.. يدخل فيه الأصفر أو "البني" أو الأخضر.. بعض الأزياء تكون "أزرارها" في الجانب مثل رداء حنان التي لا تراها في البداية.. اقترحت مرة على أم أولادك أن تفصل لسمر وهمسة زيا بأزرار جانبية لكنها رفضت بشدة.. وكلما رأت مثل هذا على أحد في الواقع أو في مسلسل الثامنة مساء الذي تواظب على مشاهدته منذ طفولتها بالتيلفزيون, حينما كان مصريا وبعدما أصبح سوريا ثم تركيا, تحرص على أن يصلك سخريتها منه..

تبحث عن حنان بين الأصوات السريعة الحادة الصارخة اللاهثة ولكنها ضاحكة تجعل مساحة وجوههم الصغيرة أكثر اتساعا.. وتنتظرها.. ساعات ترى فيها شبها من بنتك سمر التي كان صوتها معك منذ لحظات قبل أن تحيط بك أشباح عرابي..

"ماذا معك اليوم.. يارب يكون "توست.. بسطرمة.. مربى تين.. هات "حتة غيرها" فاروق خطفها مني..

تخلص "الساندويتشات".. يشاركني فيها سامح وأمجد وشريف ونبيل ورأفت وفاروق وإيناس ووفاء.. كل واحد لقمة تخطف نادين القطعة الأخيرة وتكبسها في فمها الصغير جدا وتطبق عليها بفكيها في شراسة مخيفة كأنها تنتقم منا جميعا وهي تصيح "احترس من رنجو المفترس" وتلمع عيناها بوهج أزرق حاد يسحبك إلى أعماقها فتتسمر لحظات قبل أن يستردك صوت حنان في الوقت المناسب:

- أكلوها منك مثل كل يوم..

أرد ببراءة زمان:

- أكلنا مع بعض.
- وماذا أخذت منهم؟
- يعني.. أصحابي.

- أنت تراهم أصحاب هم يرونك.. يرونك صاحب المطعم مرة.. مكتبة يستعيرون منها مجلات ميكي وسمير وتان وتان مرة ثانية.. الكتاب الذي ينقلون منه في الامتحانات مرة ثالثة.. عمرك أخذت من أحد منهم حاجة.. لا يمكن.. طبعا يجد ألف عذر.. كل واحد يخبي حاجاته.. يوفر مصروفه في شراء "الساندويتش" والمجلة.. يوفر عينيه ووقته في المذاكرة.. يوفر لنفسه ولأهله..

تتمنى من حنان ألا تلومك.. كثيرا ما تحدثك عن صفات يجب أن تغيرها.. لكنك لم تغضب أبدا فنظرة العطف في عينيها دائما لا نظرة التحدي التي ستراها بعد ذلك في عيني كل من عرفتهن..

ستكمل حنان حديثها عن أصدقائك في وقت آخر وتقول:

- عارف معظم صحابك أهلهم أغنى منك.. بعد سنوات قليلة.. سيكون هؤلاء مليونيرات عندهم عربيات وشقق وفيلات.. تفتكر ستجد منهم أحدا حولك؟! كانوا يحتاجون إليك لأنك تعطيهم ما معك.. الدنيا كما يقول الناس أخذ وعطا.. إنهم يستنزفونك وحين يأتي وقت لن يحتاجوا فيه إليك لن يظلوا على حالهم صحابك الملتفين حولك..

يمكن الواحد منهم يشوف نفسه ساعتها أحسن منك وتبقى بالنسبة له حاجة لا لزوم لها أو تفكره بأصله الذي يريد أن ينساه.. لكن أنت ستظل كما أنت الآن.. تبحث عن ناس تمنحهم ما تستطيع.. يمكن طيبة منك ويمكن تجد متعة في ذلك كما يجد الذين يأخذون متعة الحصول على منفعة..

أعود إلى زمن "الفسحة" في فناء أحمد عرابي المشتركة وأفتح سكة جديدة للكلام:

- هو أنا الآن حلو ولا وحش؟

تقول ورقة الحنان تذوب في موجة شجن:

- لن نظل أطفالا إلى الأبد.

- فيه أصحاب تأخذ وتعطي.. يعني سامح اشترى لي معه ورق الامتحانات من المكتبة الفخرية وإسماعيل أحضر لي أمس أعدادا من "باتمان وطرزان".. وأخذت من جميل اليوم لعز الكوخ المحترق أول ألغاز المغامرين كان ناقص عندي وهو وجده عند بائع المجلات القديمة في شارع السلام جنب النادي السويسري وأنا كنت اشتريت له معي من عم سعودي العدد الأخير من سمير

لأن فيها "كوبون" المسابقة.. ومن الصعب أن يجدها أحد ألا عند بائع جرائد يعرفه..

- لا أعلم ما الذي تحبه في "سمير" هذه.. كل قصصها مسلسلات والمغامرات تحس إنها مفتعلة لكي يضعوا فيها نصائح وتوجيهات.. يعني تشعر إنك مازلت في المدرسة ومعاك أساتذة يقدمون لك دروسا في الأخلاق.. القصص المسلية الممتعة صحيح في "ميكي".. قصص عم دهب وعصابة القناع وسوبر بندق.. ترى فيها الدنيا واسعة..

طول عمرك تهرب من الدنيا الواسعة.. لم تفكر في السفر خارج مصر أبدا.. شقتكم كانت ضيقة وكنت تذاكر في ركن صغير وتحشر كتبك جنبك.. لا تنام إلا بعد أن يسقط الكتاب.. تنتفض فجأة مع انفلاته من يدك.. تلتقطه من أرضية الصالة الباردة وتمسح عليه برفق قبل أن تعيده إلى إخوته الملتصقين بك..

- في قصص في سمير جميلة مثل "التنابلة" التي يكتبها ويرسمها حجازي وقصص عبد السميع واللباد.. أنا عندي أكثر من مائة مجلة أحضر لك بعضها..

- "التنابلة".. واحد مثلك أول الفصل دائما ورائده سنوات ويعجب بقصة اسمها "التنابلة".. لا شكرا أنا اشتريتها أكثر من مرة ولم تعجبني.. كل يوم خميس عم حمدي يحضر لنا "ميكي" مع الأهرام والأخبار والمصور..

ستدرك في لحظة ما من الزمن الآتي أن الحياة ليست كما هي في الظاهر فريقين الأول يتذرع بالكلمة والقيم والتضحية والثاني لا يحول بينه وبين المال شيء.. ستدرك أنهما فريق واحد متكامل.. كل واحد له مصلحته التي وجدها هنا أو هناك.. ستبحث عن الذين كتبوا في سمير فتجد كثيرا منهم في الخليج يعملون في "ماجد".. ومن ظل منهم هنا يتكسب من الكلام طبقا لما تقتضيه الظروف.. زمان كنت تظن أنهم يكتبون من أجلكم.. يكتبون في سمير حقا لأنهم يحبون الأطفال بجد وقلبهم عليهم.. الحكاية لم تكن سوى فرص وأكل عيش.. وستبحث عن الذين تشدقوا بالكلمات في زمن الكلام فتجد كثيرا منهم في الفضائيات يقدمون المساخر أو يتاجرون بأيام الكفاح ويتقاذفون الاتهامات وأبناء كبار دعاة الاشتراكية هم الآن كبار الرأسماليين.. وتبحث عن الذين خرجوا وراء المال والنساء فتجدهم يتحدثون عن خروجهم الاضطراري من مجتمع مغلق كبت أفكارهم القيمة

وتبحث عن أفكارهم القيمة وتدرك أنها تلك القدرة على قراءة السوق وبث فيه مختلف البضائع الاستهلاكية التي تعود عليهم بالملايين..

- بصراحة أنت الوحيدة التي لا تأخذ مني.. بالعكس أنا آخذ منك..
- دائما تتذكر ما يخصني متأخرا يعني تبدأ الكلام بسامح وإسماعيل وجميل وميكي وسمير قبل أن تتحدث عني..

تعاتبك حنان ضاحكة.. تضيف بعد ثلاثة أعوام بدلال مازال يحتفظ بنغمة الطفولة:

- أنا أخذت منك حاجة مهمة جدا بالنسبة لي.
- ماذا؟!

تنظر في عينيك وتبتسم.. تأخذ عيناها صورتك وتذهب بعيدا..

نعود بعد أن ننسحب من الحالة الجميلة التي أتمنى لو تدوم.. تخرج "ساندويتشاتها"..

- معي لك "بسطرمة سادة" ولي "أومليت".. أنا عارفة إنك تموت في "البسطرمة" لوحدها لكن حاول تجرب معي

"الأومليت" تأخذ نصفه.. وأنا أشاركك في البسطرمة.. جرب..

- وهل أستطيع أن أرفض.. الأكل فعلا رائع..
- غدا جبن رومي..موافق؟
- جميلة.. أحبها جدا..
- سأوصي ماما عليها بمجرد أن أصل إلى البيت..

أنتظر الجبن الرومي.. في اليوم التالي تقدم لي "الساندويتش" ضاحكة:

- جبنة دمياطي بالفلفل والخيار المخلل.. الجبنة من عند عم طه.. و"الفينو" من فرن فؤاد.. والمخلل اشتريته بنفسي بعد أن تركتك أمس من عند رمضان

كل يوم تنزل شارع مراد لتحضر لوازم الطعام من المحال نفسها.. تقف عند كل واحد وتتلفت وتتسمع كل همسة لعلك تلمحها أو تستقبل صوتها.. تكاد تسأل البائع "الأستاذة حنان مرت اليوم؟!".. تبتلع صمتك وتمضي في شارع السلام تدور حول النادي السويسري الشاسع كغابة أوروبية حتى تصل إلى المنطقة الهادئة خلفه.. وتعود من الناحية الأخرى لتصافح نافذة مضاءة في الطابق الثالث من عمارة قديمة قوية لم ينل منها

الزمن وتتصت محاولا معرفة حظك الليلة من أغنية أم كلثوم المسائية.. تخرج إلى شارع السودان وتلقي نظرة على واجهة محل "سيد وجاد" قبل أن تصعد لمقرك الجديد وتعد عشاءك..

أتذوق الطعام مستمتعا بكل لقمة بينما عيناي تستظلان بواحة نظرتها الأمومية الحانية.. أقول لها:

- لكن أمس قلت لي..

تنطلق الطفلة اللذيذة في صوتها القيثاري الضاحك الناعم:

- . أليس هكذا أفضل؟
- بصراحة أجمل.. أنا كأني أكلت مرتين.. مرة بعد أن قلت لي.. والآن.. لكن أنت اشتريت الحاجة أمس.. يعني كنت عارفة ماذا ستفعلين ألم نتفق على جبن رومي..
- فكرت في لحظة أعمل لك مفاجأة.. قلت إنك أكيد ستعيش بينك وبين نفسك طول اليوم مع الجبن الرومي.. لدرجة إنك زهقت طبعا.. وتخيلت نفسك أكلته عشر مرات.
- من أين عرفت أنني تخيلت وزهقت؟

يوما ما ستقول لك وأنت ترى شيئا من الألم يذوب في صفاء عينيها المائيتين..

- أنا أعرف طبعك.. أنت ناسي يا هاني إني خبيرة طوابع.

تشير حنان للحظة البداية.. اللحظة التي تستطيع أن تلمسها في القصص مع أنها لم تكن أبدا اللحظة الأولى.. كان معها ألبوم الطوابع.. شاهده الفصل كله بإعجاب.. وتعالت طلباتهم: ممكن آخذ هذا؟ من أين تحصلين عليها؟ ما رأيك لو نبدل؟ لم أشاركهم وانتهى الموضوع.. بعد اليوم الدراسي تقابلنا في مجموعة الحساب.. جلست بجانبي:

- كل سنة وأنت طيب.. غدا ١٨ عيد ميلادك.. صح؟

- من قال لك؟

- هو يعني سر.. نحن مع بعض من كذا سنة.. من أيام ما كنا في حضانة مدرسة الجمهورية عند "مدام" حياة قبل أن ندخل أولى ابتدائي في أحمد عرابي.. ممكن تقبل أول هدية مني؟

كانت أول هدية في عيد ميلادي الثاني عشر.. العام الذي أشعر فيه أنني أتجاوز الطفولة. وأدخل عالما جديدا أكتب فيه شهادة ميلاد عاطفية.. قبل أن نجتاز امتحان أول شهادة ونترك مدرستنا.. أخذت الهدية بارتباك وأنا أخفي انفعالا ولهفة.. قالت "افتح الهدية بعد ما تخلص الحصة.. ونكمل كلامنا في الطريق"..

- ألبوم طوابع.. ومجموعة كبيرة جميلة أنا شخصيا أحب كل ما فيها.. ما رأيك..؟!

- ألبوم ومجموعة.. أنا كان نفسي.. نفسي أشاهد ألبومك.. يعني أرى حاجة تعجبك وفيها ذوقك واختيارك.. وأشترك.. أشترك معك فيِ النظرِ إليها..

ستقول لك:

- فاهمة معنى أن يشاركك أحد في حاجة تحبها.. يومها لم تشاركنا.. كانوا يشاهدون الألبوم.. وأنت بعيد.. نظرت إليك.. وعرفت أنك لا يمكن تطلب شيئا من أحد.. لا يمكن تفرض نفسك على من حولك مع حبك لهم ووقوفك معهم دائما.. لا يمكن تدعي معرفة شيء لا تعرفه.. تعرف تخفي فضولك.. لازم تكون في صورة المستغني.. صفات جميلة ياهاني لكن فيه ناس تحب أن تشاركها.. كل واحد محتاج للمشاركة لكن لازم يفهم من يشارك ويعرف طبعه.. أنت تحب جدا التاريخ والجغرافيا والحكايات.. الطوابع عالم وقصص.. وصور وفن.. الطوابع ألوان من الناس.. ساعات تكتشف في نفسك طابع البطولة والمواجهة وتصبح في غاية

الشجاعة.. أنت مرة عملت هذا مع "ميس كاميليا" مدرسة العلوم الجديدة.. وقفت قصادها وقلت لها إنها غلطانة.. ورفضت إن الفصل يتعاقب لأن السؤال الذي وضعته لنا في الامتحان هو الذي كان خطأ.. ودافعت عنا كلنا لدرجة إنك قطعت الورقة وتركتها على مكتبها.. وجهها راح مائة لون.. وإسماعيل قام وصل مكتبة الفصل أحضر اللاصق وأخذ ورقتك يصلحها وهو يحايلك ويقول لها "يا ميس هو عنده حق".. وساعات تلمس جواك طابع الدهاء.. يعني يوم خالد بن الوليد ونابليون ويوم عمرو بن العاص وروميل.. في دنيا الطوابع تمتلك العالم كله.. حواديت تفتح على بعضها..

ستفرح عندما تصلك مجموعة الطوابع الثانية من دار الهلال.. أول مرة يصلك خطاب.. وقتها كتبت قصة عن بنت صغيرة أنقذت قطة من على شريط القطار.. وأنت تكتب كنت تراها وكنت أنت الذي تقف على القضبان تدفعك نادين بقوة وهي تنظر إليك في برود.. وأنت حنان وأمسكت بيدي نادين الآليتين النحيلتين فتحطمتا في يديها وطارت نادين بعيدا ومضت حنان بك.. طويت الورقة وصدرك يضطرب كأن القطار

يطاردك بالفعل وتبحث عن حنان فلا تجدها حولك.. في اليوم التالي قدمتها لها وكانت في غاية السعادة.. لا يمكن أنت تنسى عينيها اللامعتين وهما تلمسان كلماتك النائمة في الصفحة البيضاء.. بعد الحصص جريت حنان إلى مكتبة "فرج قرقر" واشترت الظرف وطبقت الورقة بدقة وهي تحتضنها بدفء وذهبت معك وأنتما عائدان إلى البوستة القديمة القريبة من جامع الهنيدي ودخلت قبلك وأحضرت الطابع ولصقته وأعطتك الخطاب لتكتب العنوان.. دار الهلال شارع محمد عز العرب/ المبتديان.. وعنوانك أنت.. تأخذك الحيرة هل تكتب "ميدان الكيت كات وهو الاسم المعروف أو تكتب ميدان خالد بن الوليد وهو الاسم الجديد الذي أطلقه الحي في أول السبعينيات بعد إقامة جامع خالد في الميدان.. اكتب الاثنين.. تقول لك حنان.. وبعدها شارع النيل وضع شرطة مائلة واكتب الاسم الجديد طريق جمال عبد الناصر.. هيا ضع الظرف في الصندوق الحديد.. رفضت أن تضعه هي قالت لك هذا حقك.. وهذه اللحظة ستتذكرها طول عمرك.. تضحك وهي تضيف ويمكن تكتب قصة عن ولد صغير يراسل مجلة أطفال بأول قصة في حياته والبنت التي تذهب وتعود معه كل يوم تساعده وتفرح له.. أرسلت القصة إلى

"سمير" لم تنشرها "ماما لبنى" لكنها ردت عليك تعتذر عن ضيق المساحة وتطلب منك أن تواصل رسائلك وتعدك بالنشر.. أرسلت لك ماما لبنى في الخطاب مجموعة طوابع أضفتها إلى ألبوم حنان.. لاحظت أن واحدا منها يتكرر بين المجموعتين عليه صورة فتاة آسيوية سمراء ملامحها هادئة تنم عن سلام نفسي تمنيت أن تراه في وجه حقيقي.. حنان لم تكن هادئة جدا مثل فتاة الطابع.. كانت أحيانا صاخبة لدرجة أن تشترك في نزاع مع الأولاد وتسخر منهم.. كنت تتألم حينما تراها تخبط أحدا بحقيبتها أو تنشغل عنك بالحديث مع سامح أو شريف أو حتى نبيلة.. وكانت تتعمد أحيانا إثارة غيرتك.. لم تكن الألعاب النفسية تروق لك من الآخرين.. لكنك اكتشفت مهارتك فيها بعد ذلك وأدركت أن الأساتذة يتعبون جدا إذا ما حاول أحد أن يلعب معهم بالطريقة نفسها..

هاني.. أنت تحب هذا العالم.. وتستمتع بهذا الشعور.. الوحدة والاستغناء والحياة مع الحكايات.. أنا عرفتك.. ووضعت يدي على مفتاح شخصيتك وقت أن كنت طفلة أستقبل معك عامنا الثاني عشر..

لا تكاد تصدق أنها تعرفك لهذه الدرجة.. لكنك ستتذكر كلامها بعد أن تمزق ورقة الأسئلة التي وضعها أستاذ المادة الذي تشاركه لأول مرة بعد حصولك على الدكتوراه لأنه أخذ أسئلتك وغيّرها.. من حقه أن يفعل ذلك فهو المسئول عن المادة ويرفض ما تراه.. ومن أنت حتى يكون لك وجهة نظر في المناهج والمحتويات وأساليب التقويم.. أنت في عالم الكبار مازلت ابنا يجب أن يسمع الكلام.. ولماذا تغضبهم منك وهم يتوسمون فيك الخير.. أنت الهادئ الطيب الدبلوماسي لماذا تصبح في لحظات الثائر المندفع الذي لا يحتمل أن يقهره الظلم..

كل يوم في "الفسحة" نكمل حديثا لانهاية له ونحن نأكل الساندويتشات الجديدة ونستمتع بالطعم اللذيذ المختلف ونرى الأشياء نفسها: معالم مدرستنا التي نحفظها غيبا.. المبنى "البيج" الأساسي.. المبنى الأبيض الجديد.. الركن الأخضر عند المكتبة.. مربع "الكانتين" البني الفاتح.. غرفة الموسيقى الطويلة ورنين الإكسليفون يتحرر من الصمت مع حركة يديّ جيهان الصغيرة أخت حنان التي تحب أن تنظر إليها وهي مندمجة تماما في إيقاعها الطفولي الساحر في لحظة ترى فيها "حنان"

وترى نفسك ثم ترى السنوات الست وهي تعلو في أثير روحك حتى تتكاثف في عينيك فتمسح بمنديلك القطني الأبيض ما تساقط من مشاعرك وتضحك حنان وهي تضرب ذراعك برفق "البنت جيهان لها أثر عليك.. لم نتفق على ذلك".. تضحك أنت بصدق وصفاء "أنا أراك فيها وفي إيقاع الموسيقى الجميل.. أنا تعلمت منك كيف أعيش في شخصية ثانية لإنسان أحبه.. ساعات أبحث عن هادي الذي تنادينني أحيانا باسمه وأن متأكد إنه غير موجود إلا في نفسي.. وأنت أحيانا تعيشين في شخصية جيهان فماذا أفعل.. لكن عارفة كأنها تحكي حكايتنا".. "يعني أنت متأكد أن "هادي" هو أنت.. يا أخي أنت مغرور جدا".. تؤكد لها أنك فعلا "هادي" الذي تحبه مثلما أنت "هاني" الذي يحبها.. ويرتفع الرنين المتناسق الحر من القطع المعدنية الملونة حينما تتلامس مع دقات أنامل جيهان وتثق أن الأنامل تصرخ بخطاب روحي ربما لا تفهمه تلك الصغيرة نفسها.. وإسماعيل يبتسم حين يرانا "خليكم أنتم في الكلام.. جيهان تلميذتي.. إحنا بتوع الموسيقى".. يغمز لي بعينه اليمنى رافعا صوت "الأكورديون" الأحمر المعلق على صدره وهو يعزف مقدمة "أمل حياتي" التي يعشقها.. ثم ينادي كأنه تذكر شيئا مهما:

- "هاني"..

اتجه إليه فيسبقني:

- "لا مؤاخذة يا نانا.. الأسبوع القادم في يوم إجازة ٢٢ فبراير عيد الوحدة.. سينما كيت كات ستعرض لأول مرة إمبراطورية ميم.. ندخل معا الصبح السينما الشتوي.. ماشي..

- ماشي يا "سمعة".. أنتظرك الساعة العاشرة.. نادي أنزل لك على طول..

يعود "سمعه" إلي فرقته.. وتضحك حنان:

- أنتم تدخلون سينما كيت كات الشتوي.. أنت عارف إنها قريبة جدا من بيتنا..

- أنتم قصاد النادي السويسري عارف طبعا يانانا.. ساعات أمر على بيتك وأعود من ناحية مكتبة سندباد ومدرسة إمبابة الإسماعيلية الإعدادية بنات.. (أكيد ستذهبين إليها بعد شهور قليلة.. طبعا عارف يا نانا.. وعارف إن الإسماعيلية الإعدادية بنين على بعد خطوات من مدرسة البنات.. أكيد سنلتقي رغم كل انفصال ومهما كانت الحواجز..) هي سينما درجة ثالثة لكن تنزل فيها

الأفلام بعد عرضها في وسط البلد على طول.. أنا دخلت فيها مع إسماعيل أفلام الأرض والاختيار ونحن لا نزرع الشوك..

- أنا عمري ما دخلت سينما درجة ثالثة.. ساعات نروح مع بابا وماما ريفولي أو ديانا أو مترو.. ونقعد في جروبي أو الأمريكين.. وساعات ندخل مسرح "البالون" نشوف فريدة فهمي ومحمود رضا.. لكن أحلى حاجة لما نروح "كازينو النهر" ونقضي اليوم على النيل في الجزيرة..

- أنا وإسماعيل في موضوع السينما ممكن ندخل أي حاجة.. هو مجنون تمثيل وأنا طبعا أحب الحواديت قوي.. في إجازة نصف العام دخلنا سينما "روال" كان فيها فيلم تحفة لسيدني بوتييه..

- فيه سينما اسمها "روال"؟!

- لا.. اسمها "رويال".. لكن النطق الشعبي هكذا..

بعد كذا سنة ستقول لك حنان:

- أنت غريب جدا.. في معظم الأوقات رومانسي موت.. ولما تتكلم جد تعيش في دور ابن ناس قوي.. وساعات شعبي.. لكن عارف كلها أدوار حلوة عليك..

وستقول لها إنك مثل "الكيت كات" فيك كل حاجة.. ثم تضيف:

- طيب ما أنت فيك كل البنات الجميلة.. كل واحدة يعني فيها حاجة صغيرة منك..
- يا عم لاتأخذنا إلى الرومانسية الآن.. ونرجع مرة ثانية لموضوعنا.."الفسحة" قربت تخلص.. لكن أقول لك حاجة بجد أنا ساعات أحسد الأولاد.. يتقابلون كما يريدون ويذهبون للسينما ويلعبون كرة في الشارع.. ماشي يا هاني ادخل السينما مع "سمعة".. على فكرة أنا أموت في فاتن حمامة.. عارف هي الممثلة الوحيدة التي تستطيع أن "تشيل" الفيلم.. ويذهب الجمهور من أجلها..

غدا يا حنان سنذهب لكل مكان.. أجمل مكان بالنسبة لي هو المكان الذي نكون فيه معا.. في الفصل أو في الملعب.. في طريق الذهاب أوالعودة.. ويا سلام على أيام الرحلات.. المتحف والقلعة والأهرام.. وحديقة الحيوان.. وحديقة الأسماك..

فاكرة لما كانت البنات تنادي علينا ونحن أمام أحواض السمك في الجبلاية.. تضمنا برقة.. تسألنا عن أسمائنا.. نرد بالأسماء المستعارة التي نحبها جدا وساعات ننادي بعضنا بعضا بها: "فدوى وسمير" أو "وفاء ورامي" لكن أحلى اسمين كانا طبعا "جيهان وهادي".. تقول البنت لخطيبها: "خلاص.. البنت جيهان والولد هادي.." مرة خطيبها قال لما تخلص الحرب.. ربنا يجعل لنا نصيبا ونتزوج ونخلف ويطلع أولادنا مثلكما.. وخطيبته تقول بإذن الله يا حبيبي..

- لا تنسى أن تحكي لي الفيلم ثاني يوم الصبح في طريقنا للمدرسة..

أحكي لها الفيلم.. الموضوع هو الديمقراطية.. يعني الناس تحكم نفسها.. كل فترة ينتخبون واحدا منهم لإدارة حياتهم.. الفيلم يتكلم عن هذه الفكرة في البيت داخل الأسرة..

- ما هو طبعا كل مرة الناس تنتخب الشخص نفسه.. لأنهم اعتادوا عليه.. فصلنا مثلا كل سنة ينتخبك رائد الفصل..

أقول ضاحكا:

- صح.. هذا هو ما حدث في الفيلم.. الأولاد حياة قنديل وليلى حمادة وهشام سليم وأبو النجا.. في الآخر انتخبوا أمهم فاتن حمامة مرة ثانية.. وهي رفضت تتزوج أحمد مظهر وضحت من أجلهم..

لما تتكلم معك عن الفيلم وأنتما في الثانوي في نهاية السبعينيات ستقول لك "أنا لا أحب هذه الفكرة.. لماذا تضحي وتشعرهم إنها أضاعت حياتها بسببهم.. ولماذا لا يتقبل الأولاد فكرة زواج أمهم.. ما هي لازم تلاقي واحدا من سنها وقريبا منها تعرف تعيش معه.."

- طبعا حضرتك قلت ليلى حمادة وحياة قنديل في الأول..
- والله ما أقصد.. هما الأشهر من سليم وأبوالنجا وفيه واحد لا أذكر اسمه..
- بصراحة هما الأحلى.. لكن خمسة أولاد كثير جدا.. مهما كان فاتن هي التي ستحكم لأنها الأقوى.. لعبة حلوة..
- أنت فيك شبه من الثلاثة.. حياة وليلى وفاتن..
- كيف..
- لا أعلم لكن بجد فيك شبه منهن..

ماشي.. أحك لي الفيلم من الأول..

تأخذك الشوارع الجانبية كل مساء وأنت عائد وحدك من جامع خالد بن الوليد لفرن فؤاد والمحل الأخضر الكبير الذي يقف فيه أولاد عم طه تنتظر بأسى إلى السينما المغلقة و"الأفيش" الباهت الممزق لفيلم "٧ أيام في الجنة".. تصل إلى النادي السويسري وتتعمد أن تذهب لتجلس عند مراد صديقك القديم الذي يقف في محل زجاج أبيه المجاور لمكتبة الأصدقاء السودانية وبقالة الخواجة اليوناني.. تسلم عليه فيطلب لك الشاي من المقهي الصغير الملتصق بمطبعة أولاد عمر ويحدثك كثيرا عن تعبه مع أولاده في توفير ثمن الدروس الخصوصية لأن التوأمين فريدة وملك في الثانوية العامة والولد مدحت (ابن الست الثانية) في الإعدادية.. فاكر عم أبو المعالي.. سميت الولد مدحت على اسم ابنه المفقود في الحرب.. أنا عارف إن رأفت حبيبك كل يوم يكون عندك يعدي هنا ويسلم ويأخذ الشاي معي.. والله أنا سعيد بوجودك هنا لكن ألن تعود إلى الأولاد وأمهم؟ أكيد وحشتك سمر وهمسة (يصر على نطقها هكذا) وسمير.. يتحدث مراد وأنا أتأمل ما يظهر من الأشجار الكثيفة العملاقة التي تسبح رؤسها في مساء الخريف..

هنا نادي الخواجات تأتي إليه ناس من أوربا يقولون إنه كان مقر المدير الذي يشرف على المنطقة زمان والناس الشعبية تسمي النادي "جنينة المدير" تصور يا هاني الرجل الذي بناه اسمه "ماير" أنا دخلت على "النت" مع الولد مدحت وكتبنا في "جوجل": "النادي السويسري" ولقيته على الخريطة وشفت مكان المحل.. عالم عجيب يا أخي لم نكن نتصوره أبدا.. المهم عم "هنري ماير" لم يكن عنده أحد يورثه وترك المكان للجالية السويسرية.. يا ترى دخلته؟! أنا شغال جنبه من سنين وعمري مادخلته.. مرة شفت أمجد وسامح خارجين من ناحيته في سيارة أمجد الذي كانت معه زوجته الأجنبية وبنته الصغيرة.. عارف إن "محمد فاروق" هو الآخر تزوج من إيطالية.. سامح هو الذي قال لي لما سألته ماذا تفعلون في الداخل؟ قال لي نجلس ونشرب الشاي.. لن يعجبك.. إنه هادئ جدا وكل واحد في حاله.. الأجانب لايتحدثون كثيرا.. كل واحد معه كتاب أو مجلة.. ولا أحد ينظر إلى الآخر.. صحيح؟!

لن تقول له إنك دخلته مرات مع حنان.. أول مرة وأنتما عائدان من المكتبة في الإجازة بين الإعدادية والثانوية.. وأنكما ادخرتما أسبوعين من المصروف ثمن التذاكر.. كنتما تريدان

معرفة العالم القريب منكما جدا والبعيد عنكما الذي يأتي إلى هنا.. يومها جلستما تصافحان المكان بصمت قطعته حنان بعد نصف ساعة "ياترى لما نكبر ويكون عندنا أكثر من ستين سنة سنأتي إلى هنا ونجلس نقرأ صامتين هكذا؟!" قلت لها لقد أتينا الآن ونجلس نطالع هذا العالم صامتين.. وقالت لك "لماذا لا يستطيع الناس عندنا أن يتركوا كل واحد في حاله هكذا كما يفعل الأجانب..؟! لماذا ينظرون ويعلقون ويضايقون بعضهم بعضا؟!" ربما يا حنان لأن الناس هنا لا تملك ما يكفيها أو يحقق لها نفسها فينظر كل واحد لمن حوله.. (في الجامعة عندما تقوم بإملاء شيء لتلامذتك أو تحدد صفحات المنهج في الكتاب تجد عين كل واحد في أوراق زميله.. كأنه خائف أن يحصل جاره على شيء ليس عنده أو كأنه لا يثق في أن ما يسجله بنفسه في كراسته وكتابه صحيحا).. ربما طبيعة الشرق والغرب.. والأجانب يتركون بعضهم بعضا في حالهم لكن هل تركونا في حالنا؟! هل يدخرون طاقتهم للتدخل الفعال في خريطة العالم بدلا من استهلاكها في "البحلقة" في الرائح والغادي؟! ومع احترام خصوصية الآخرين فإن الناس تميل إلى التعارف في هذا المكان تعرفت أنا وحنان على "فراو مايتس"التي مات زوجها في

العلمين أيام الحرب العالمية الثانية.. جذبها "البلوفر" الأحمر في أبيض الذي ترتديه حنان كان صناعة أمها الماهرة في "التريكو" حنان أيضا ورثت هذا عنها.. "فراو مايتس" سألت حنان بلهجة مصرية "مكسرة" عن "البلوفر" ومن الذي صنعه ووعدتها حنان تعمل لها "كوفيه" بيديها ونفذت وعدها.. في إحدى الجلسات التي جمعت بيننا قالت لنا "فراو مايتس":"أنا أحببت مرة واحدة ومات وهو يحارب في الصحراء كان عندي عشرين سنة ومعي قطعة منه رضيع أصبح الآن مترجما في "جنيف" وعنده بنت بدأت تتعلم الكلام.. سأعلمها لغات كثيرة أهمها لغة المشاعر واحترام الحياة وأتمنى تكون دبلوماسية تحقق الحب والتفاهم بين البلاد" تضيف "مايتس" بعمق لايخلو من شجن "لم أفكر أبدا في رجل آخر بعد رحيل زوجي الذي لم أعش معه سوى عام واحد هو رصيدي الحقيقي.. خزانة افتحها في أي وقت فلا أحتاج لأحد وأجد فيها ما يكفيني ويزيد.. الاحتفاظ بالحب والصداقة أمر صعب جدا يحتاج إلى مقاومة أنفسنا.. الشعور الحقيقي يظل مع حرصنا على ألا نأخذ ممن نحب وإنما نمنح.. فرق كبير بين حبك الذي ينمو بالعطاء والاحتياج الذي ينقص كل ما أخذنا من الآخر.. يعني لو حبيت أحدا لازم تفكر فيه هو وتأخذ قرارك في

أي موضوع مشترك كما لوكان حبيبك هو الذي يأخذه حتى لا تكلفه فوق احتماله أبدا".. خرجت مع حنان وتناقشنا طويلا في هذه الفكرة وتذكرت الآن موافقة حنان على رأي "فراو مايتس" وقالت لي يومها "الذي يأخذ يحب نفسه.. ولما كل واحد يحاول ينال مايريده بالاعتماد علي من يحب سيأتي يوم وينفد رصيده.. بل يمكن نكره هؤلاء الذي خدعونا باسم الحب ليحصلوا منا على احتياجاتهم الناقصة.. "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين".. طبعا يا هاني.. أذكر يا حنان كل الكلام الذي قلناه قريبا جدا من هنا..

يواصل مراد.. فيلا الخواجة "ماير" الخواجات حافظوا عليها.. انظر ياهاني الناحية الثانية من النيل قصادنا بالضبط فيلا أم كلثوم الله يرحمك يا ست.. اتهدمت وطلع مكانها عمارة تحتها قهوة.. بعض الفيلات هنا أصبحت عمارات أيضا.. فاكر الفيلا المسكونة التي تسلقنا سورها ودخلنا لعبنا فيها كرة دون أن نخاف لما كنا في سنة سادسة.. تصور معظمنا كان ساكن هنا مع إن أحمد عرابي بعيدة.. أنا وأنت وحنان ومحمود أمضينا عاما هنا (دائما نضغط على كلمة "هنا") في مدرسة الجمهورية لما دخلنا "الحضانة" قبل ابتدائي.. والدي الله يرحمه كان عارف

قيمة التعليم مع أنه لم يتعلم.. المحل نفعني أكثر من بكالوريوس التجارة.. تزوجت مثله ثلاث مرات.. لكن هو عمره ما جمع بين اثنين على ذمته.. الأولى ماتت وتركتنا والثانية هربت بعد ماسرقته ولم تستحملنا والثالثة ربتنا مثل أمنا.. (يضرب يده على صدره ويواصل) أخوك طلق الأولى ومعه الآن الثانية والثالثة.. حاجة غريبة يا "أبو سمير" كل "برواز" بعد ما أعمله وأضع فيه الصورة أطيل النظر فيه.. وأرى شبها كبيرا بين صاحب الصورة أو صاحبتها وشخص عرفناه من زمان.. انظر أليست هذه الصورة تشبه الأستاذ نجدي.. هذه تشبه الولد أمجد الله يمسيه بالخير وتلك فيها حاجة من خالد فهيم.. أما هذه.. (أرد عليه) "فيها شبه كبير من نادين الله يرحمها".. صح برافو عليك.. أنت عارف إنها صورة بنت أخت نادين.. أمها اسمها نادين أيضا لأنها جاءت بعد المرحومة بسنة واحدة والبنت الصغيرة اسمها سما.. لها أخ اسمه شريف على اسم الولد شريف صاحبنا وصاحب محلات شارع عبد العزيز.. ربنا يعطيه طوال ست سنوات كان نائبك في ريادة الفصل.. ألا تراه.. يا خبر نسيت أقول لك انظر هذه الشهادة.. (اقرأ الاسم: جيهان... الحاروني) جيهان أخت.. (يرد مراد) أخت حنان..

شهادة الدكتوراه الأستاذ مصطفى والدها هنا تجاوز الخامسة والسبعين هو الذي نزل بنفسه وقال لي يامراد شهادة الدكتوراه لجيهان من كلية التربية الموسيقية اعمل لها أحلى برواز.. تسأله عن حنان وأنت تخفي انفعالك بالنظر إلى فضاء الغابة السويسرية المطلة على المكان.. فيقول لك دون أن يرفع بصره عن القطعة الزجاجية التي يقصها (في الكويت من سنين.. تكتب في الجرايد ويقولون إنها تؤلف مسلسلات..) تهز رأسك في تأمين كامل على ما يقول وتمضي على مهل يليق برجل في نهاية الأربعينيات وتسير بمحاذاة النادي الأوروبي الوقور الصامت عابرا الشارع الصغير الهادئ الواصل بين "السلام" و"صلاح الدين أو بونابرت سابقا".. تصافح عيناك مكتبة "سندباد".. وتحتضن نافذتها وتراها في رداء "الحضانة" الأزرق السماوي الفاتح جدا.. في "ديسك" واحد كما تقول بعض المدرسات أو "تختة" أو "دكة" واحدة كما يقول عم إبراهيم "الفراش" الذي يأخذنا صباحا ويعيدنا ظهرا.. ثم نسير وحدنا إلى أحمد عرابي المشتركة ونواصل الحديث ونسلم على رأفت وهو يقلد أمين الهيندي: "بنات.. بابا.. ياللا يابه أنت وهي".. ورجاء تكاد تقع من الضحك.. أحكي لها عن أيام كثيرة لم تكن فيها

معي.. "ياه أنت أخذت الماجستير والدكتوراه وألفت كل هذه الكتب".. "كان نفسي أهديها لك لكن زوجتي غيورة جدا.. ولا يمكن تفهم ما بيننا.. وأنت لم تتركي مجلة عربية ألا ولك فيها مقال.. والآن مسلسلات وشهرة تستحقين كل خير".. "أنت شاهدت حلقة أمس من المسلسل.. طيب أحكيها لك".. تحكي كما كان الواحد منا يحكي للآخر زمان ما فاته من حلقات "القط الأسود" و"الجنة العذراء" و"Rich man poor man " التي كان بطلها ممثلا من عائلة "شتراوس".. نحكي في حماية أسوار عرابي الصفراء العالية التي تحمينا من السيارات المسرعة التي تمر في اتجاهين متعارضين بشارع النيل وتصدم إحداها نادين يوم الثلاثاء ٦رمضان قبل حرب ٧٣ بأربعة أيام ومنعتنا الحرب من أن نزور ماما سلوى إلا بعد العيد الصغير بفترة.. نحكي ونلتقط "الزلط" الصغير من رمال الفناء لنلعب بها "السيجة" التي لم يهزم أحد فيها سامح قاسم أبدا.. نحكي وأمجد يتوسط شريف ونبيل وجميل ونبيلة عارضا مجلة الحائط التي اشتركوا فيها معا.. تحكي عن أيام لم أكن معها هناك في الكويت.. الحر شديد جدا فاكر زمان في أول الثمانينيات كنا نتحدث عن مدينة نصر على أنها صحراء وكنت تقول أنا لا يمكن أبعد عن النيل ووسط

البلد.. أنا هناك في الخليج يا هاني أكثر من عشرين عاما.. أحكي عن أحلام غريبة متكررة أرى فيها صورا تتكلم في براويز مذهبة ومفضضة يصنعها أبو مراد بمهارة ثم يكسرها ويقذف بالصور لابنه كي يعيد حبسها في براويز جديدة يتأمل فيها أشباحا قديمة.. ونبيل يخطف من شريف ألبوم الصور الذي تطالعه إيناس.. نصافح الأيدي والوجوه والنظرات التي مازلنا نتأمل معانيها.. تتفتح الأماكن مع حركة الشمس التي تعبر شارع النيل وتقول حنان معلقة على حديثنا القديم:

- كل واحد في الأولاد له شخصية.. والفيلم يجمع هذه الشخصيات وكأنه يقدم لنا الناس في الدنيا.. لكن لماذا حرف الميم..؟!
- لا أعرف..
- يعني عامل نفسك شاعر.. وكل يوم تكتب أغنية جديدة.. وترسل رأيك في برامج الإذاعة لعلي فايق زغلول ولا تعلم إجابة سؤال بسيط مثل هذا..
- أنت عارفة..؟!
- طبعا حرف الميم يعني مصر.. الأسرة التي يتكلم عنها الفيلم هي بلادنا.. فيها اللاعب وفيها الموسيقار وفيها

البنت الجد والبنت الرومانسية والشاب السياسي.. يعني نماذج من الناس.. والديمقراطية حلم وكل واحد يرى أن توفر له حكومته التي ينتخبها ما يحتاج.. ياريت يحصل هذا في أيامنا القادمة..

أقول ضاحكا بلهجة تمثيلية:

- أول حرف في اسمي ليس (ميما) لكني مصري ياترى الحكومة ستحقق لي ما أريد أو لن تنظر لي لأن أول اسمي(هه)..؟!
- هه.. هه.. هه.. هذا يتوقف على مزاج الحكومة وعلى ماتريد سيادتك.. لكن من حقك تطلب ومن حق الحكومة ترفض..
- وما الذي سأكسبه من هذه الديمقراطية؟! طيب الآن لا أطلب إلا رأيك في شخصي المتواضع يعني أريد تحديدا لي مثلما حددت ملكة التحليل طبيعة كل واحد في الإمبراطورية الميمية..
- أنا قلت لك عليها لكن كل يوم مازلت أجد حاجة جديدة..

كنتما في صيف سنة ١٩٨٣ وأنت تقرأ معها بحث التخرج الذي أعدته عن محمد التابعي:

- يا سلام.. كأنك العقاد وهو قاعد يحلل حتى يصل إلى مفتاح الشخصية.. أنت تفكرين في كل واحد بطريقة جادة هكذا وتحاولين معرفة مفتاحه؟!

ستضحك وهي ترفع رأسها الدقيق كأنها ترد على مذيع يحاور نجمة:

- يعني حضرتك تقصد إني أعرف طبع كل واحد وذوقه.. لماذا.. هو أنا فاضية.. هل تظن أنني أهتم بالناس كلها هكذا وأمنحهم وقتي الثمين؟ يا ابني في استثناءات في الحياة.. ومحمد التابعي حالة استثنائية ثانيا لأنه بحث التخرج وثالثا لأنه شخصية مثيرة للاهتمام وثرية من جميع الجوانب..
- وأولا..؟
- أولا وأخيرا سيادتك يا حبيبي حالتي الاستثنائية الأولى والأخيرة.. لكن عارف أنا اتعلمت من التفكير فيك هذا المعنى.. معنى أن تحاول معرفة الناس.. صدقت إنك مفيد بالنسبة لي لدرجة لا تتخيلها.. لكن فيه حاجة غريبة جدا ألاحظها على سيادتك معي..
- خير.. أنا أعمل لملاحظاتك ألف حساب..

- إن أنت دائما تربط بيني وبين رجال.. يعني مرة في ابتدائي تدخلني في سياق واحد مع إسماعيل أو جميل.. الآن تشبهني بالعقاد.. أنت يا بني محتاج كشف نظر..
- ممكن أجد شبها بينك وبين الدنيا كلها.. لإنك الدنيا بالنسبة لي..
- هو تفسيرك رومانسي جميل لكن غير مقنع يا هاني..
- لماذا..
- لأن معنى هذا أنك تجد بيني وبين كل بنت أو كل إنسان شبها ما.. فإذا كنت تراني في شخصيات أخرى ربما تستغني عني بشخصية من هؤلاء..
- لا يمكن طبعا..
- لكن أنا نفسي أكون مختلفة عن الكل.. نفسي أشعر أنك تستغنى بي عن العالم.. أنت ساعات تعمل العكس.. تتركني لكي تراني في عالم الآخرين..
- أترك قلبي وروحي..
- خلاص براءة.. نرجع لموضوع التابعي..

نرجع لأيامنا فنذهب معا للمدرسة من شارع النيل.. حنان تحب رؤية الطبيعة وهي تستيقظ.. نعود من شارع السوق لأن منظر الناس حيوي جدا..

انظر الأم الصغيرة هذه.. يا ترى عرفت تعمل الأكل؟ تفتكر زوجها يجاملها حتى لو لم يعجبه الطعام؟ معظم الرجال بعد الزواج يتحسرون على أيام "ماما".. "بابا" يلعب مع أمي هذه اللعبة حتى الآن.. الست تكون واقفة ساعات تحضر له حاجة يحبها وأول ما يتذوق يا سلام.. تسلم يديك.. لكن "ماما" –الله يرحمها– كان لها طعم ثاني..

جميلة قوي هذه البنت نفسي يكون عندي بنت.. أنا أحب اسم سمر جدا.. اسم رقيق وصغير من ثلاث حروف مثل أم عندها ثلاث "بيبيهات".. ويفكرك بالصيف والحرية والإجازة.. واسم همس رومانسي جدا لأن فيه حرف الهاء مثل هاني..

عندما تذكر حنان سيرة الأطفال تصيبك الدهشة.. لم تستطع أبدا تخيلها امرأة في بيت الزوجية تمارس ما يمارسه الأزواج وتطبخ وتغسل وتعمل للأولاد حاجاتهم.. لم تستطع أبدا تخيلها في أية صورة إلا هكذا كما تراها الآن البنت الصغيرة البريئة الذكية المشتعلة الإحساس والعقل التي تذوب مشاعرها في

حديثها وتستشف الأفكار والمعاني من موجة إرسالك قبل أن يبدأ.. كانت عيناك أحيانا تمران على التضاريس الأنثوية المحيطة بك في الشارع والجامعة والسينما والمجلات وكانت تعجبك التفاصيل والتقاسيم لكنك كنت تنأى بحنان دائما عن الدوران في المدارالحسي ولم تكن بالنسبة لك على الإطلاق امرأة مثيرة.. لكنها موطن العشق الخالص الذي يحتويك نوره فيفيض فيه نبعك مستقطرا مداد حقيقتك في حضورها.

تعلق حنان على الناس كأنها تعرفهم فتضمهم في عقد زمردي تزين به رحلتنا اليومية وتطبع ببصمة صوتها الصور في خيوط حكايات تتداخل مع أحلامنا نرويها ونضحك:

- لما تشوف بنتا مثل هذه تذكرني.. وأنا.. أنا سأتذكرك كلما مشيت هنا.. جنب محل عم محمد الترزي.. وعند البوتيك الجديد.. ودكان حسن عبد العظيم ومكتبة سمير والنادي السويسري ومدرسة الجمهورية التي علمتنا فيها "مدام حياة".. والطافش ومكتبة إمبابة والسينما الصيفي والسينما الشتوي حتى فيلا"الخواجة" المقفولة التي يقولون إن فيها "عفاريت".. ساعات أرى النور في الدور الثاني.. أكيد فيه حارس أو يمكن "الخواجة" نفسه يأتي

مرة كل شهر.. نفسي نعمل مثل المغامرين الخمسة ونكوّن مجموعة لحل الألغاز أول حاجة نشوفها هذه الفيلا.. عارف أنا أكثر مكان أتذكرك فيه هو "سيد وجاد" في "مانيكان" يفكرني بك كلما رأيته.. شبهك جدا.. تعال نشوفه.

نذهب معا يصاحبنا صوت فايزة أحمد "قل لكل الناس إحنا حبينا" ساريا من جميع محلات شارع السلام.. لا أحد يستطيع أن يخفي الحب.. كل من ذاق العشق يتمنى لو عاشت كل الناس شعوره.. يتمنى ألا تتركه هذه الحالة أبدا.. يتمنى ألا يتركه هذا الزمن مثلما تركك فأبيت إلا أن تعود إلى مكانه وغادرت البيت والست والأولاد وأتيت الآن إلى هنا تعيش وحدك مع الماضي في شقة صغيرة إيجار جديد تجاور ذاك "المانيكان" الذي كان محط نظرتها الساحرة.. وتلتقط من الأثير رسائل لا يستقبلها سواك لأنك لن تنساها أبدا ولن تنسى كل مساحة شهدت وجودكما.. بداية من قلب أحمد عرابي وكل ركن فيها.. عند الباب الزيتوني الكبير المطل على شارع النيل.. فاكرة كان فيه "كشك" النور الأصفر القديم.. تأتي الناس من الكيت كات وإمبابة لتدفع القروش القليلة وقتها.. وعند الباب الرمادي الجانبي الذي

كنا نلعب أمامه الكرة بالدوم قبل أن نعرف انكرة الشراب في سنة سادسة.. كل شجرة هنا وقفنا عندها.. كل طفل أتى بعدنا وضعنا أيدينا على رأسه وساعات نضع قطعة من "التوفي" في يده.. كأننا نترك حكايتنا في كل مكان نمر فيه وفي قلوب البشر أيضا.. سيضحك لنا الأستاذ نجدي والأستاذ محمد عطية و"مدام" سعاد يوم الاستمارة.. يارب تظلان معا على طول.. لم تفرقنا إجازات الصيف أبدا لأن مكتبة إمبابة في شارع العلمين خلف المساكن الشعبية التي بنتها الحكومة للمهاجرين كانت تجمعنا.. بدأنا نستعير روايات عالمية وكتب تاريخ بعد ما كان آخرنا "تان تان وهادوك وميلو"..

نخرج من أحمد عرابي.. نخرج إلى التيه.. كل واحد في طريق.. سنقابل أناسا لا يعرفوننا ونبدأ من جديد نقدم أنفسنا لمدرسين وأصحاب كانت هذه أقسى مرحلة بالنسبة لك ولكي تخف هذه الغربة تدخل"إمبابة الحديثة" البعيدة عن مدرستها لأن معظم أصحابك ذهبوا إليها لكنك لن ترشح نفسك أبدا رائدا للفصل لأنها غير موجودة فيه وكأنها كانت تدفعك لتكون الأفضل والأقوى والمسئول.. ما الذي يجدي الآن في غيابها فليظهر من يظهر بالعكس ستتعمد ألا تشارك في أي نشاط رغم

محافظتك على تفوقك وكأنك تدخر وجودك الحقيقي لوقت لقائها وبالفعل ستجمعنا ساعتان يوميا ما عدا الجمعة بالطبع والاثنين في مجموعة "إدوار ورعوف" في المبنى المجاور لجامع الطناني بعد العصر كان وقت المجموعة أحب إليك آلف مرة من وقت المدرسة وكنت تشارك في الحصة بشكل مدهش كنت مسيطرا على الفصل تماما لدرجة أن الأستاذ رعوف مدرس الإنجليزي الأنيق جدا الذي يحبك مثل ابنه تماما كان يتعجب من شخصيتك المتوهجة في المجموعة.. الصامتة في الفصل.. ولن تفرقنا المدرسة الثانوية لأننا سنذهب لدروس "المشروع" التي ينظمها الأستاذ علي عبد المجيد مجانا لتجمعنا صباح كل يوم جمعة في مدرسة التحرير بالمنيرة في إمبابة.. فنذهب إليها من الكت كيت ونعود مشيا وكل منا يروي للآخر أحداث الأسبوع..

ندخل أدبي معا يعارضنا الكبار فنقنعهم.. تريدون أن نكون "دكاترة".. يوم من الأيام ممكن نكون "دكاترة" بجد.. يعني نأخذ "الدكتوراه"..

نحصل على المجموع نفسه في سنة ثالثة.. ندخل لأول مرة جامعة القاهرة ونجلس في "الكافيتريا" التي شهدت آلافا من روايات الحب لترتيب الرغبات ولصق الطوابع.. وقتها كنا نفعل

كل شيء لأنفسنا أما اليوم فالأمهات يفعلن كل حاجة للأولاد لدرجة أنهن يذهبن معهم حتى باب الجامعة وأحيانا تدخل الأم كي توصي "الدكاترة" على أبنها أو بنتها أو تبحث له عن أساتذة المراكز والدروس الخصوصية.. أسأل حنان:

- أول رغبة إعلام طبعا.. طيب ماذا بعد..؟!
- نبحث عن كل كلية آداب بها قسم إعلام..
- يعني نضع كليات إقليمية..؟!
- المهم التخصص الذي نريده..
- كنت أتمنى أن نظل في جامعة القاهرة..
- المهم رغباتنا..
- لو الرغبة الأولى ضاعت يتغير كل مستقبلنا..
- لا.. ممكن نصر على الرغبة الأولى لو فهمنا كل حاجة متاحة لنا.. يعني الإعلام موجود في بعض كليات الآداب.. حتى إذا دخلنا قسم عربي أو درسنا لغات نستطيع العمل في الصحافة.. المهم الإصرار على ما نريد ونتحرك لغاية ما نصل إليه..

كان الإعلام بالنسبة لنا أنا وحنان يعني الكتابة في الجرائد فقط.. الكتابة هي حلم العمر الذي سيحتضن أرواحنا التي تفيض

مدادا تذوب فيه كلِ هموم الناس في بلادنا وفي العالم.. ولم أكن أتصور لي وجودا خارج ذلك..

تطلع نتيجة التنسيق.. بيننا وبين كلية الإعلام درجة واحدة.. أفكر في آداب القاهرة.. ممكن قسم عربي.. سأظل في عالم الكلام والفكر والأدب.. تصر حنان على رغبتنا فتدخل كلية آداب إقليمية بها قسم إعلام..

- أنت كسول يا هاني.. عايز تأخذ "الأتوبيس" أو "الميكروباس" من جنب بيتكم تنزل قصاد الجامعة.. تعال معي.. المفروض أنا البنت أفضل قريبة من البيت.. وأنت الرجل تذهب إلى آخر الدنيا لتحقيق نفسك ليس من أجل ذاتك فقط إنما من أجل من تحب.. لكن عيبك الكسل.. خليك "مقدام"..
- حلوة قوي منك مقدام.. تذكرني بناس زمان.. لكن آداب القاهرة فيها أساتذة كبار ولها تاريخ..
- لأنها جنبنا ربع ساعة تكون هناك..
- خلاص.. ما رأيك نبخل معا الألسن.. هي بعيدة كان فيها أخو محمد الخطيب وقال لي إنها في الزيتون..

يعني الحكاية لا علاقة لها بالكسل.. مجموعنا أعلى منها واسمها من كليات القمة..

- لن يفرض عليّ مكتب التنسيق رغبته.. الألسن مثل الآداب.. ما الفرق.. أصبحت كلية قمة بعد الانفتاح.. أنا أفضل التخصص في الإعلام من الآن ربما لو دخلت ألسن أستسلم لعمل بعيد عن الصحافة.. أنا أخاف أقضي حياتي سكرتيرة في بنك.. أو مترجمة تنقل كلام واحد ثاني حسب طلبات السوق.. وينتهي بي المطاف في وكالة أنباء أترجم أخبار أجنبية عن زواج الفنانين والفنانات ودلع كلابهم وقططهم.. والناس عندنا لا تجد طعاما أو مأوى.. أنا سأعمل في الصحافة.. وسأدرس ما يؤهلني لذلك..

نفترق.. ويصبح الهاتف جسرا بيننا.. ونفرح جدا بكل فرصة للقاء في مكتبة إمبابة أوال Britich Council .. نمشي على النيل ونمر على بيت نجيب محفوظ ونعبر كوبري الجلاء ونتحدث بطول الجزيرة وعرضها.. ونعود مشيا من شارع ٢٦ يوليه والمسرح والسنترال وكوبري الزمالك.. نعدي الشارع من أمام توكيل صيانة "فولكس فاجن" وشركة المياة

ونمر على وزارة الثقافة في عمارات الأوقاف.. وغالبا ما كانت عيوننا تتعلق بهذا المكان وتنظر لي حنان وتضحك: "عارفة تريد أن تقول لي في يوم من الأيام ستكونين هنا في هذا المكتب وتصبحين أحلى وزيرة ثقافة في العالم".. أحيانا نرى رأفت جالسا في المقهى الزجاجي الذي يتوسط الميدان وهو أول من أطلق على هذا المقهى الجميل الذي ضاع اسم "الدايرة".. يشير لنا رأفت برأسه وتبتسم عيناه وتقول حنان: "رأفت مازال صغيرا على شرب "الشيشة" هذه سيستهلك صحته بسرعة".. وتقول لها: "لكنه طيب ومخلص جدا".. وترد عليك بشيء من العتاب: "وما علاقة هذا بذاك..؟ يا هاني ساعات كلامك غير منطقي.. أفصل بين العقل والعاطفة وقت اللزوم..".. وتبدأ معها في كلام لا ينتهي..

ياه كان عندنا طاقة نفسية رهيبة لم تنخفض حراراتها أبدا طوال أعوام الجامعة الأربعة.. ومن حسن حظنا وقتها لم يكن المجموع التراكمي موجودا.. كان كفاية علينا "جيد جدا" في السنة الأخيرة والحمد لله حصل.. ترفض حنان العمل الأكاديمي.. تشتغل في "روزا اليوسف".. وأنا أتعين معيدا..

تقول لي إن عندهم فرصا للعمل.. و"دار التحرير" أيضا تريد صحفيين.. أتردد..

- يا نانا أنا اتعينت في الكلية.. يعني فرصة الكتابة موجودة.. "الماجستير" و"الدكتوراه".. وتأليف الكتب للطلبة.. وممكن يكون لي مشاركة في الصحافة الأدبية مع الوقت.. طه حسين كان أكاديمي ومفكر وكاتب في الجرائد والمجلات..
- أنت يا هاني الآن تفرط في رغبتك الأولى.. الزمن غير زمن طه حسين أو زكي نجيب محمود.. الجامعة اليوم تخرج عشرات أو يمكن مئات "الدكاترة".. العمل المهني يلتهم الموهبة.. مهما قيل عن طه حسين الأكاديمي أو ذكر باسم العميد فالذي يعرفه الناس عنه هو القضايا التي أثارها في كتب للقارئ ومقالاته ورواياته.. في الصحافة ستكون مهنيا تعيش في المؤسسة من داخلها وتتعب وتتعرف وتتطور فيها.. ستكون حياتك في الأخبار والمقالات والرأي والهجوم والرد وإثارة قضايا والدفاع عن حقوق.. في الجامعة أنت واحد في مؤسسة كلاسيكية مقيدة.. هل تظن أنك ستفعل ما تريد؟! عندك

برامج ومقررات ومناهج مفروضة عليك ومحتويات تشارك فيها غيرك أيضا.. لكن العمل مريح.. وكلمتك سيتلقاها الطالب دون مناقشة ويحفظها ويمتحن فيها وتقيمه بنفسك.. يعني أنت تبحث عن الراحة والسلطة والمكانة.. "دكتور" لها بريقها الاجتماعي لكن طموحك الروحي الحقيقي سيضيع.. منافساتك مع أقلام أخرى وآراء مختلفة محدودة جدا.. مهما فعلت فأنت مفروض على الطلبة لكن الصحفي صاحب الكلمة الحقيقية الناس تسعى إليه.. أنت موهوب في الكتابة وحرام يضيع تعبك في مقررات عن تاريخ الأدب والمدارس النقدية.. لكن أنا عارفة.. أنت لا تريد أن تترك الكلية التي تعرفت عليها وقضيت فيها أربع سنوات.. عارف بعد كذا سنة ستمل وتتمنى لو كنت مشيت في طريق آخر.. أنت فيك تناقض غريب.. تناقض يسبب لي أنا شخصيا القريبة منك جدا حالة فزع..

- كيف..؟!

- دماغك وروحك وقلبك بركان مشتعل.. لكن اختيارك وسلوكك مقيد جدا وكلاسيكي قوي ومحافظ لدرجة الجمود.. طيب كيف تتصالح مع نفسك..؟!

- عالمنا النفسي حاجة وعالمنا الاجتماعي الخارجي حاجة ثانية.. يمكن الحرية الوحيدة الحقيقية هي حريتنا الداحلية.. في دماغنا.. مع نفسنا..

- يا هاني الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.. أنت تعرف جيدا الأفضل لك أو الذي تجد فيه مجال راحتك.. وعليك أن تختار بين ما تريده بالفعل وما تجده أمامك.. كيف تعيش في ازدواجية.. يعني كيف تكون.. تكون مشاعرك وأفكارك في ناحية.. وكلامك مع الناس وحياتك الاجتماعية في ناحية أخرى.. بهذه النظرة يمكن أن تقول لي أحبك وأريد أن نتزوج وداخلك يرفض أن تتقيد بحب أو تتحمل مسئولية زواج..

- يا نانا لا يمكن أتخيل نفسي مزدوجا فيما يخصنا.. وبالنسبة لأمور الحياة كلها لا يمكن أن يكون هناك انفصال لهذه الدرجة .. دائما فيه قناة اتصال على رأي الإعلاميين بين الواحد ونفسه أو بين وجوده الداخلي

الذي يفكر فيه ويتخيل ويحلم ووجوده الاجتماعي الذي يمارس فيه مهنته وسلوكه مع البشر..

- حاول تحافظ على هذه القناة.. وحاول تغذي علاقاتك مع الناس برصيدك الخاص الذي تحتفظ به لنفسك..

أصبحت أحاديثك معها جدلية.. هل تحاول حنان إثبات ذاتها الخاصة أمامك.. يعني هي تتمرن فيك من أجل تكوين شخصية إعلامية لها فكر وطاقة وأسلوب.. تضحك بينك وبين نفسك.. معقول.. وليكن ما المانع.. فلتمنحها هذه "البروفة"حتى تنال في عالم الإعلام الدور الذي يسعدها.. ولأول مرة تزورك حنان في الحلم فتقول لها رأيك.. تثور في وجهك.."أهذه صورتي عندك.. مستغلة وناقصة نضج لدرجة إني أتدرب فيك"..

تتمنى أن تنسى الحلم ولكن شبحه يراودك كلما التقيت بها.. يشغلك موضوع "الماجستير" تتمنى التخصص في الأدب الحديث.. تتمنى تنشغل في أعمال "إحسان عبد القدوس.. لاشيء يهم..لا تطفيء الشمس.. الطريق المسدود".. ولكن هل سيوافقون في القسم.. إن النزعة الكلاسيكية أكثر سيطرة وإحسان تحديدا بعيد عن دائرة الاهتمام الجامعية.. لو بدأت بدراسة تاريخ الأدب سيكون لك وزن في القسم ومكانة عند

الأساتذة.. والأدب الحديث لن يضيع منك لأنك تقرأ الجديد وتتابعه كل يوم وربما تكتب فيه يوما ما..

تتجاوز حنان العمل في مكان واحد.. تدخل أكثر من مؤسسة صحفية تحكي لي عن هذا العالم الصاخب المثير.. تكتب وتترجم وتنشر وتغطي أحداثا.. وأنت.. أنت مكانك.. في الكلية نفسها التي تخرجت فيها..علاقاتك محدودة بالأساتذة أنفسهم.. تظن أنهم النماذج الإنسانية التي يمكن أن تصنف البشر في الدنيا على طباعهم.. تضحك حنان:

- طيب أنت أقرب لمن فيهم..؟!
- كل واحد فيه حاجة..
- يا بني لازم تكون آراؤك واضحة.. خلّيك صاحب موقف..
- هو الواحد لازم يكون مع أو ضد..؟!
- طيب فيه أساتذة خارج القسم عندك تحب تشتغل معاهم؟!
- أنا لا أعلم شيئا عما يدور خارج القسم عندنا.. ومن الصعب أن يترك الأساتذة واحدا منا يسجل مع أستاذ من كلية أخرى..

- يا هاني العالم واسع كبير.. نحن نختصره على قدنا.. لكن ساعات هو يأخذنا ويمنحنا مساحات لم نكن نتوقعها.. كونك تختصره في مساحة صغيرة مع طبعك المتمرد الذي تكتمه في نفسك.. معناه إنك في يوم من الأيام ممكن تكره هذا الوسط الذي يحيط بك.. أنت تعيش تجربة لدرجة التشبع والاستغراق بعد فترة تتقلب عليها لأنك وأنت داخلها لم تكن في حالة جدل وتفاعل حقيقي.. كنت مستسلم في الظاهر ومتمرد في الباطن..

- طيب عندك علاقتنا تجربة ناجحة ومستمرة..

- يمكن لأننا دخلنا كليتين مختلفتين.. وأصبحنا نلتقي على فترات..

- أنا نفسي نكون مع بعض على طول..

- تفتكر ستظل سعيدا بذلك إلى الأبد..؟!

- طبعا يا نانا..

يستمر نجاح حنان.. وأنا أنتهي من التمهيدي وأختار موضوعا للماجستير.. فجأة تأتي حنان وتحدثني عن عرض أمامها للعمل في الخليج.. لم أتصورأبدا أننا يمكن أن نعمل

خارج مصر.. إن العالم يأتي إلينا.. نقرأ ونناقش ونتخيل.. لكن نترك مكاننا هنا..

- لماذا؟

- الخليج فيه استثمار ومرتبات وفرص.. ناس عندها فلوس ممكن نبني نفسنا ومجتمع مفتوح فيه بشر من كل الدنيا..

- لكن الواحد مرتبط جدا بالبلد هنا.. نفسي كل كلمة نقولها توصل للجيل الجديد.. نفسي نظل متواصلين مع الناس الذين خرجنا من بينهم..

- لازم نرى هؤلاء الناس من بعيد مثلما نراهم من قريب.. يعني على طريقة "أجافيكم لأعرفكم".. وفي الوقت نفسه نرى الآخرين من قريب لأن فكرتنا عنهم من بعيد نمطية وأقرب إلى الوهم.. طول ما الإنسان في مكانه سيظل جاهلا بالعالم وبالمكان الذي يسكنه أيضا.. أنت مثلا ترى أن أساتذتك في القسم هم أحسن أساتذة في الدنيا.. لكن أنت لم تر غيرهم.. وتظن أن طلبتك سيرونك أحسن محاضر.. مع الوقت.. ومع طبعك النفسي الثائر سترى أن من حولك حجزوا بينك وبين العالم.. وربما

تبحث لهم عن مليون خطأ.. وأنت الذي أخطأت حينما ارتحت لسلوكك الكسول.. طيب افرض إن يوما ما بعد ما فضلت في مكانك وأنت جواك ثائر عليه.. وجدت المكان نفسه يزيحك.. يعني لقيت إن الطلبة لا يحتاجون إلى ما تقول.. مثلا.. فاكر أصحابك القدماء.. بعضهم تراه إلى اليوم.. وبعضهم ابتعد عنك تماما مع أنك كنت تقدم لهم كل شيء.. لماذا لم تميز بين من يمكن الاستمرار معه ومن لا يستحق.. لماذا تجد في كل واحد منطقة حلوة تتعامل فيها ثم تتمرد أحيانا عليه وتقوم بتكبير السلبيات التي كنت تتعمد ألا تراها.. فيه مشكلة معاك ياهاني.. إحساسك متوهج.. ذهنك في حالة نشاط دائم.. لكن عندك كسل شديد في الحركة.. وهذا التناقض يجعلك تستمر في طريق حتى يظن من معك أنك موافق تماما على كل شيء.. وفجأة تأتي لحظة التحول التي ترفض فيها كل من جعلك تستسلم وترى أنه ورطك في حياة أنت لا تريدها..

- المهم يا نانا.. نأجل الجدل في الطباع ونأخذ قرارا في هذ الموضوع..

- أي موضوع تقصد السفر..؟!
- نعم..
- بالنسبة لي أنا قررت أسافر.. لكن أنت مستحيل تترك الكلية أو تأخذ أجازة قبل ما تنتهي من "الماجستير" و"الدكتوراه".. المؤسسة الحكومية لها لوائحها.. وأنت في هذه الفترة في حالة وفاق معها..
- مهما كان نرتبط ثم نفكر في حكاية السفر يا نانا..
- نرتبط..
- أقصد نتزوج.. يعني أتقدم للأسرة ونحدد مواعيد الشبكة وكتب الكتاب.. أنا أسف على كلمة نرتبط.. أنا عارف أن ارتباطنا النفسي حاجة لا تحتاج إلى كلام..

تقلب عينيها بيني وبين السماء والأرض..

تخفي حنان ألما رهيبا تنساب منه سحابة تحول بيني وبين صورتي الساكنة في عمق نظرتها الذهبية التي أستمد منها طاقة الحب والعمل والحياة.. ما الذي يسبب لها هذا الألم الخانق؟!..

لم تكن بالنسبة لها أبدا ذاك الآخر الذي تبحث عن صيغة تخاطبه بها..

نحن شخص واحد لا نجد صعوبة في الكلام.. في المصارحة مهما كانت..

يتدفق اللسان من نبع بالقلب..

حينما أتكلم تكون في داخلي..

الكلمات التي أنطقها أمامها هي صاحبتها..

ما يفيض من عطرها هو النور الذي يلمس مشاعري فتذوب في أثيره وتصبح كلماتي ظلا له..

وأنا أراني في تلك البلورة السحرية حينما تكلمني فأدرك أنني هناك في المكان الذي أسعى إليه..

حنان تتكلم فأنا موجود..

عيناي اللتان أراهما في قلب عينيها تزدادان تألقا وصفاء فإذا بي أعبر إلى نفسي..

كلماتها دائما جسر لحقيقتي.. فما الذي تبحث عنه في ذاك العذاب الذي لم تمنحني بعد مفتاح شفرته؟

- كل واحد فينا في يوم من الأيام سيرتبط بالزواج.. بالتأكيد سنرتبط.. أنت ستتزوج.. وأنا.. ربما أتزوج.. لا أعلم بمن.. لا أدري كيف.. لا أرى الآن ملامح هذا الارتباط واضحة..

- ألن نكون زوجين نعيش في بيت واحد طول العمر ونحقق مانتمناه في أن نظل معا إلى الأبد..؟! ألن يحتضننا مكان واحد وحياة واحدة..؟ ألن يكون لنا عالمنا المشترك الذي تسري فيه هذه النفس الواحدة التي نعيش بها..؟!

- سيرتبط كل منا بشخص آخر.. لكن أنا وأنت لا.. صعب جدا.. قرار وأخذته من فترة طويلة.. قرار كان من الممكن أن أموت وأنا أغرق في دوامة عذابه القاتلة.. لكنني أخذته وأريد أن أتجاوز أزمته.. وأنت.. أنت ستساعدني عليه.. ستساعدني لأنه.. لأنه قرارك الذي لا تستطيع أن تأخذه.. أو الذي يمكن أن تأخذه يوما ما في لحظة لا أستطيع تصورها أبدا..

- لماذا؟ أنت تعلمين أني..

تقول:

- نعم وأنا عندي الشعور نفسه.. لكن الارتباط عندي سيكون بالعقل.. أنا فكرت في طبعك كثيرا جدا يا هاني أنت ملول.. عالمك جواك.. تمنح الآخرين ما يفيض منك.. لا تستطيع تصور أنهم يختلفون عنك.. أنت تراهم

عناصر يكتمل بها وجودك.. أو تتسع بها حدودك.. لا تضع يدك على احتياجاتهم الحقيقية.. يعني لا تشاركهم فيما يريدون.. يكفي بالنسبة لك أن يشاركك من حولك فيما تريد.. يعني لا تستطيع الخروج من نفسك إليهم.. الزواج بالنسبة لك يا هاني سيكون سجنا.. ستندم عليه.. وربما تكره من تتزوجها مهما كان شعورك نحوها.. أنت لا تستطيع أن تندمج في شركة وتنفذ حاجات ممكن تكون مفروضة عليك.. الزواج ليس شعورا نعيشه.. فرق كبير بين تأسيس شركة بكل ما فيها من التزامات زيارات.. عائلات. مجاملات.. طلبات.. احتفالات.. مسئوليات تجاه آخرين لازم تفكر فيهم أكثر ما تفكر في نفسك وحريتك وراحتك.. بالعكس لازم تعمل توجيه لمشاعرك وتمنح من حولك ما يريده هو أحيانا وليس ما تريده له دائما.. كل هذه الأشياء أنت تهرب منها.. يا هاني أنت تريد تثبيت واقعك وإطلاق خيالك.. لكن الحقيقة عندك ليست هي الواقع الذي ارتضيت ظاهريا بقيوده إلى أن تتمرد عليه وترفض كل من تظن أنه قيدك.. وتجري وراء لحظة واحدة تمناها الخيال..

صدقني أنا لا احتمل تغير مشاعرك تجاهي بعد الزواج..
والأحسن أن أظل بالنسبة لك حلما أو أكون سرابا.. عن
أن أكون السجان الذي لا تطيقه..

أسألها:

- هل ستعيشين في يوم من الأيام مع شخص لا تحبينه..
أنت لست من هذا النوع يا نانا.. أنت لا تحتملين هذه
الحياة أبدا.. أنا أستطيع تحقيق التوازن بين عالمي
النفسي والاجتماعي ولكن معك وحدك.. ستثبت لنا الأيام
أننا قادران على جعل الحلم والواقع حياة واحدة..
- لن تستطيع.. أنت تستسلم للواقع ثم ترفضه.. توفر
إرادتك وجهدك.. تستخسر نفسك في الواقع وتمنحه
شخصا آخر يظن من حولك أنه أنت.. ثم تمل من هذا
الشخص الذي يرافقك وتسعى للتحرر منه رافضا كل من
استقبله.. لأن هذا الشخص الذي صنعته سجنك في
نفسك.. ومن أحبه ساعده على ذلك.. وأنت تعاقب الذين
تعلقوا به وأهملوك.. أو أهملوا الشخص السجين في
نفسك..

- يا نانا هذا كلام صعب جدا.. لا أتصور أنني بهذا التعقيد.. هذا انفصال..

- لو كنت لا تعيه..

- تقصدين أنني أعي ذلك..

- يخيل إلي أنك واع بهذا السلوك.. لكنك ترفض الاعتراف به لأنه سر خاص جدا بينك وبين نفسك..

- بماذا تصدقين يا نانا.. أنا أتمنى يكون كلامك صحيحا.. لأنني لا أتصور أن يكون رأيك تجاهي خطأ أبدا..

- أنا واثقة فيما أقول.. وبينك وبين نفسك أنت تدركه.. وتتمنى عدم زواجنا.. تتمنى أن أظل لك شخصية فنية.. خيالية.. لأن الخيال عندك هو الحقيقة.. ويمكن إحساسك مع الوقت بأني غير موجودة في عالمك الاجتماعي يجعلك تبحث عني جواك أكثر وأكثر.. أنا سأفتقدك جدا طبعا.. لكني سأكون سعيدة بإني معك دائما وأنك تشتاق إليّ لدرجة تجعل حبك لي حقيقة تعيشها ولا تهرب منها..

- سنفترض أنني هكذا.. وأن عدم ارتباطي بك يناسب طبعي أكثر.. ماذا عنك أنت.. أنا متأكد أنك لا يمكن أن ترتبطي دون عاطفة..

- صدقتني.. تخلصت من موضوعك سريعا.. بدأت تطرح مشكلتي أنا.. يا هاني أنا واثقة الآن أنك تريد الارتباط بي من أجلي وليس من أجلك..

- يا نانا أنا أفترض.. أنا أريد الوصول لحل يجعلني أشعر ناحيتك باطمئنان..

- مسألة ضمير وتطهير.. لا تخف عليّ أبدا.. أنا عندي عقل وعارفة إن الحب ممكن يأتي بعد الزواج وأن الحياة لها طرق مختلفة.. أحيانا تمنحنا كثيرا لم نكن نتوقعه.. ربما لا أرتبط.. ربما.. ويمكن أتزوج.. وأتعلم فن إدارة الحياة.. وأنت أيضا ستتزوج.. لكنك لن تبحث في نفسك عن المشترك.. ستعرف كيف ترضي الآخر لوقت طويل.. ثم ستبدأ في استرداد هاني الحقيقي الذي لم يستسلم لإرادة غيره.. أنت حاجة ثانية في موضوع التعامل مع البشر.. تمنحهم أكثر مما يريدون وتنتظر

منهم أن يعرفوك.. وحينما لا يصلون إليك ترفضهم.. وتتحرر منهم..

أقول لها:

- فكرة مخيفة أن نفترق يوما ما إلى الأبد.. ألا نتكلم ألا نتواصل.. ألا نرى الأشياء نفسها.. ألا نحكي عن عالم واحد.

- احتمال كبير نتواصل لكن بطريقة جديدة.. الدور سيختلف.. سنجد نقطة التقاء.. يمكن يجمعنا عمل أو جيرة أو صداقة بين أولادنا.. هناك أشياء جميلة كثيرة في الحياة..

تحاول الهرب من الأزمة بشبح ابتسامة دامعة وهي تقول:

- أرجوك إذا تزوجت في يوم من الأيام حاول تشارك الست التي لن تعرفك أبدا..

يتدفق النبع الرومانسي من القلب إلى جدول في عينيها أرى فيه نفسي وكأنها صورة في طابع بريد..

يسري عبير ألبوم الذكريات تستحضرها روحك فتراها وتسمعها..

تبتسم وهي تضع يدها على رأسي المتعب لتحدثني عن الولد الصغير الذي كان يسير معها كل يوم إلى المدرسة يقاسمها الطعام بعد أن يمنح ما معه لأصدقاء لا يعرفونه..

يسير في صحبتها فيرويان معا سيرة الناس في شارع النيل والسوق هنا جنب "وسعاية أصلان" التي يخرج منها كل يوم واحد جديد من عائلة "مالك الحزين"..

أنت فاكرهم..

يا ترى عرفوا إننا كنا نحكي عنهم؟ يا ترى ستتذكرني في الأماكن التي اتفقنا عليها؟..

وهل تستطيع أن تنساها؟!

كيف تنسى نفسك التي تحققت ورأيتها بعينيك ومشاعرك وعقلك أمامك كما تتمنى أن تراها وكما تحب أن تكون..

لا إرادة لك في نسيانها لأن ميلاد إرادتك كان يوم مواجهتك لنفسك بحبها.. ستتذكرها في نفسك وفي الشارع وفي كل صفحة جميلة تنعكس عليها نظراتك.. ستتذكرها في الأماكن التي اتفقتما عليها وأكثر.. ستتذكر أن "حنان" ليست اسما لتجربة عاطفية قديمة وإنما هي سر كتاب الحب الذي ستقرأ سطوره في الوجوه والأعصاب والكلمات.. حنان هي الحب الذي ستلمسه ويلمسك

في كل مكان..سيظل طابع حنان علامة مائية.. كل فتاة جميلة رأيتها كان فيها لمسة منها..سيكون لها وحدها قلبك.. وستعرف كيف تحافظ على سكنها فيه.. مهما استضفت فلن تجد فيهن من تنازعها في تلك المساحة التي شغلتها بوضع اليد والعين والروح.. مهما كان الشبه الذي استعاره منها الأخريات فستظل المسافة بينها وبينهن بعيدة.. بعيدة بعدد الخطوات التي سرنا فيها معا.. بعيدة بعدد الحكايات والكلمات والناس والذكريات التي تجمعنا.. بعيدة بعدد الأشعة الذهبية التي أشرقت من عينيها وأضاءت مساحات لم يرها أحد من نفسي التي تعيش في الأفق الممتد بيني وبينها.. بعيدة هي الأوقات التي كانت تضمنا معا.. لكنني أحتفظ بها وأستطيع استعادتها كاملة.. ليس معنى ذلك أنني لا أفتقد "حنان".. إنني أتمنى لحظة حقيقية أجدها فيها أمامي.. معي.. خارج نطاق الوهم الذي يبتلعني بينما أظن أنني أمتلكه..

الآن أدرك لماذا لم ترتبط بي.. وأصدقها.. وأبحث عن الطريق الآخر الذي لم أضعه يوما موضع النظر مكتفيا بما أنا فيه بينما عقلي يحاور أطيافا لا وجود لها.. أدرك أنني لم أكن طموحا لكي أعيش تجربة وجود حقيقي مع حنان.. كنت أظن

انها اختياري الوحيد.. ماذا بعد أن تزوجت ومضت بي الحياة في اتجاهات لم تكن موضع اختياري لكنني وجدت نفسي فيها وتركت قيادي لها.. هل احتفظت برغبتي أو استسلمت لمكتب التنسيق..؟!

حنان لم تتزوج حتى الآن كما قال لك رأفت الذي يقابلك كل مساء ويصحبك في جولاتك الليلية أحيانا.. حنان لم تستطع خيانة مشاعرها.. عندها رصيد في خزانة ملكها وحدها والآن تحاول مشاركتها فيه بعدما نفد رصيدك.. حنان لم تقع في قبضة المتاح.. وأنا الذي كنت بيني وبين نفسي وقتا ما أدينها لأنها سترتبط بشخص لا تحبه.. لقد ارتبطت بشخص تعرفه.. ولأنها تعرفه فقد تركت له الحرية.. الاختيار الذي لم يجده أبدا "بين القوسين" في كل الأسئلة التي فرضت عليه وتوهم أنه يجيب عنها بإرادته.. الآن تشعر باختناق لغيابها..

دائما كنت تؤجل رغباتك ياهاني وكأنك ستحققها يوما ما بطريقة ما في عالم آخر فاكر نفسك "أفلاطون".. عالم فيه حرية مطلقة لا أحد يبحث لك عن خطأ.. لا أحد يسخر من اختياراتك قبل أن يرفضها.. عالم تراه في نومك وفي أحلام يقظتك المتزايدة..

كانت حنان من المؤجلات التي أصبحت كثيرة.. الصحافة والكتابة الحرة والعودة إلى المدرسة القديمة والاجتماع مع كل تلاميذها الجدد وأنتم هناك تحكون لهم حياتكم التي مرت أجمل ستة أعوام فيها منذ أن دخلتها في سبتمبر ١٩٦٧ إلى أن ذهبت وحدك لتسحب أوراقك في منتصف يونيو ١٩٧٣.. بعد أن استمعتم جميعا لنتيجة الابتدائية من "ميكرفون" مبنى الاتحاد الاشتراكي المواجه لنادي ناصر الذي تراه من النافذة الصغيرة أمامك الآن وتسمع صيحات اللاعبين والمتفرجين.. تسمع فتجري إلى الباب لتجد البواب والجيران "يا أستاذ هاني.. رائحة الغاز تسري في العمارة كلها.. تأكد من إغلاق عيون "البوتاجاز عندك".. تندفع إلى المطبخ لتغلق العين الكبيرة المفتوحة التي كنت ستصنع عليها "البطاطس" قبل أن تغير رأيك وتؤجلها لغداء اليوم التالي.

الدور الناقص

تنضم إلينا نادين في طريق العودة.. لم تكن إيناس تحبهـــا.. كذلك هاني وحنان.. "أكيد عايزة حاجة".. تصر نادين كل مــرة بعد أن تدخل ناحية بيتها في الشارع الجانبي المنحدر من شارع النيل.. أن تناديني.. "شريف..شريف.." تحدثني في أي شيء.. كما لو كانت بيننا أسرار.. تقول إيناس:"مش ناوية تسيبك فــي حالك".. تواصل نادين: "تعال.. تعال بيتنا في أول الشارع.. سلم على ماما وبعدين امش..

لا تنتظر نادين ردا.. تطرق الباب بقوة وترتمي في أحضان امرأة صغيرة نحيفة دقيقة رقيقة شقراء جميلة..

- اقدم لك ماما سلوى أمي طبعا.. اقدم لك شريف زميلنـــا من الأوائل ومساعد هاني رائد الفصل الواقــف جنـــب البنت حنان السمراء.. لكن شريف هو المــسئول عــن النشاط الفني والاجتماعي ست سنين.. وعــدني يــذاكر معايا المواد والحساب والعربي..

لم أكن قد وعدت نادين بشيء:

- أنا ما قلتش في البيت..

- ماما تبلغ مامتك.. بيتكم قريب أنا عارفاه البيت الأصفر الصغير فوق محل "أبو رئيسة"..

- وصحابي..

- قصدك "توسة.. نبيل يوصلها ما هما أقارب.. وحنان وهاني"التوأمان الملتصقان.. هاهاها" ببساطة أقول لهم أنا..

تجري نادين إلى أول الشارع العمومي.. تنظر ناحيتي وأنا واقف بمدخل بيتهم مع أمها وتضحك ثم تخترق نظرتها الحادة إيناس.. يرفع هاني يده مودعا ويصيح "الصبح أمر عليك".. وتشير حنان بيدها.. ويهز نبيل رأسه.. ألوح لهم "مع السلامة".. لكن عيني لم تفارق إيناس هل غضبت؟ لماذا لم أعتذر لنادين وأمها؟ ولماذا تكذب نادين؟ أنا لم أرفض مساعدتها ولكنها لم تطلب قبل ذلك.. "اتفضل يا حبيبي" تأخذ ماما سلوى حقيبيتي

الثقيلة ذات اللون "البني" الفاتح الذي يناسب لون الزي "البيج"..

أنظر إلى عينيها بخجل:

- ماما سلوى.

- اسم قديم.. مش كده؟

- أصل فيه ماما سلوى الله يرحمها.. كانت وقعت بها الطيارة.

- قصدك سلوى حجازي.. أنت كنت تتفرج على حواديتها في التليفزيون؟

- لا أنا أشتريت الأسبوع الماضي من معرض الكتاب في الجزيرة حكاياتها المطبوعة.

- عارف نادين عمرها ما اتفرجت عليها.. كنت أقول لها تعالي اسمعي الحدوتة.. تضحك وتقول لي أنا عندي ماما سلوى لوحدي.. بس نادين دي حكاية بتألف الحواديت بنفسها وياما عملت لنا مشاكل.. أصلها بنتي الوحيدة.. كان لها توأم.. أمير -الله يرحمه- مات عنده

سنتين عشان كده أنا أخاف عليها قوي ومدلعاها شوية..

أنت عارف يا حبيبي إن عندها تعب في القلب.. ربنا يارب يشفيها ويخليها..

- لكن نادين قالت لي إن لها أختا كبيرة.. وقالت لي كمان إن أختها متزوجة خالها.

تضحك ماما سلوى:

- قصدها هدى بنت عمك فتحي بابا نادين من المرحومة نجاة زوجته الأولى.. هدى متزوجة أخي رفعت.. هو خال نادين.. لكنه ليس خال هدى طبعا لأنه حرام في الشرع.. وهما معنا في البيت..

تدخل نادين بسرعة في الحديث:

- الدور الثاني بتاعهم.. وماما وبابا وأنا دلوقت لنا الدور الأول.. لكن أنا لوحدي سيكون لي الدور الثالث.. هانت هو قرب يخلص.. عائلتنا عندها بيت ملك كبير.. عارفة يا ماما شريف كلهم عندهم أوضتين وصالة صغيرة والشقة إيجار..

لا أعلم من أين حصلت نادين على هذه المعلومات.. وماذا تقصد بها.

- بكرة يا حبيبتي كل واحد فيكم يكون من الأغنياء.. بعد النجاح والشغل والتعب..
- يعني أهل شريف غير ناجحين.. مسكين شريف يا ماما.. والله "برافو" عليه إن هو عارف ينجح..
- وكتر خيره جاي يذاكر لك.

ترد ماما سلوى على نادين بينما أنا في غاية الارتباك.

- تعالى يا بني الأكل جاهز.. اغسلوا أيديكم" وأنا أنزل أقول لوالدتك إنك تتأخر عندنا شوية.
- معلش يا ماما أصل شريف ماعندهمش تليفون زينا.

تقول نادين بلهجة استعلاء.. وتنظر لي بسخرية وتواصل:

- أبقى أحفظ تليفون "أبو رئيسة" عشان تبلغهم لما تتأخر.
- وليه يا بنتي يتأخر تاني.. ياللا كلوا وذاكروا.. البيت بيتك يا شريف.

كانت أول مرة أشعر بالفروق الاجتماعية بين الناس.. دائما تسندني شطارتي.. تفوقي.. دراجاتي.. حرصي علــى اختيــار الملابس والألوان.. الذوق والثقة في طريقة الكلام والتعامل مع المدرسين.. وحب الأصدقاء والزملاء الذين يختارونني كل عام مع هاني في ريادة الفصل والأنشطة.. كان المدرسون يتعاملون معي أنا وهاني بحب واحترام.. نذهب إلى الفــصول الأخــرى لنشرح الدروس ونحل الامتحانات.. مع "مــيس" تحيــة" فــي الحساب والأستاذ نجدي في العربي والأستاذ محمد عطيه فــي المواد الاجتماعية.. وكانت مدرستنا الأولى علــى الإدارة فــي التعليم والخطابة ومسابقات الأدب والرسم والتمثيل والرياضة.. وكنت مشاركا في كل هذا.. ولم أشعر أبدا أنتــي أفــضل مــن أحد.. أو أن أحدا أفضل مني.. كنت أرى قبل كــلام نــادين أن كلنا واحد.. جميل عطا الله يعيش فــي شــقة فخمــة رائعــة.. الأرضية خشب وعندهم "تليفزيون" أكبر من "تليفزيون" الحكومة الذي يفتحه عم مصطفى كل يوم من الخامسة إلى الحادية عشرة

في حديقة الزمالك.. وأكبر من التليفزيون الموجود على الرف العالي في "قهوة مطر" التي شاهدت فيها مع أخي الكبير مباريات "الإسماعيلي والإنجلبير" و"الأهلي وسانتوس".. و"كلاي وفريزر" في الملاكمة.. جميل عندهم أيضا "ثلاجة" بينما معظمنا يشتري الثلج من عند أولاد الحاج عربي.. وعندهم "بيانو" أسود كبير مثل "بيانو" المدرسة الذي تعزف عليه وفاء زميلتنا وسمر أخت إسماعيل.. نصعد مع جميل أحيانا فيخرج "البيض المسلوق والجبن الرومي و"الفلامنكك" واللنشون.. ثم "المارتديلا" الخاصة به ويقول "أوعوا حد يأكلها.. دي بتاعتي.." رأفت ابن عم أبو المجد العامل في المدرسة يصمم أحيانا أن نطلع معه..يدخل المطبخ ويعود بطبق الجبنة القديمة والبصل أو يقول لأخته الكبيرة مها تعمل لنا أقراص الطعمية بالسمسم أو تخليها "عجة" وتضرب معها ولو "بيضة واحدة" أو "سد الحنك" بالدقيق والسمن البلدي..لم أشعر أبدا بالفروق بين الناس.. كل حاجة لها جمالها وطعمها..

بحركة آلية بطيئة وباردة تناولت صامتا ملعقتين من طبق الأرز.. وانتظرت نادين.. كانت تنظر لي بثبات..

- أنت زعلت؟

- لا.. لكن عندي صداع

- يعني مش حتذاكر معايا؟

- مش عارف

- لا أنت زعلت مني.. أنا ما قصدش.. وبعدين فيها إيه يعني لما تكون الناس مش زي بعضها؟ ما أنت أشطر مننا كلنا يعني إحنا بقى نزعل ولا إيه؟

- لا حقيقي أنا فعلا تعبان.

أرى في عينيها شعورا بالارتياح والفرح.

- ليه ما بتقولش إن كلامي ضايقك بدل ما تمثّل إنك عيان؟ ليه الناس ما بتحبش تقول الحقيقة؟

كان كلامها اتهاما صريحا لي بالادعاء.

- أنا مازعلتش من كلامك بس يمكن كان مفاجأة لكن بجد عندي صداع.

تتغير نظرتها الحادة وتفقد ثباتها وتسرح عيناها في صورة الطفل الصغير الساكنة في الحائط المواجه لنا.

- يعني لو كان أخويا عايش كان حايزعل مني لو كلمته كده؟ أفرض إنك أخويا كنت حتتضايق من كل كلمة أقولها؟

تخرج نادين الكراسات وأبدأ في حل الواجب.. تتركني وأنتبه لاندفاع كلب ضخم نحوي.. أتمالك نفسي برغم الرعب الذي أكتمه.. تدخل نادين وتنظر تجاهي لحظات قبل أن تنادي "رنجو.. رنجو.. تعال هنا".. يتجه رنجو إليها ويتمسح بها.. تضحك بافتعال هستيري:

- هو بيتعرف عليك..أوعى تكون خفت؟
- أبدا بس أول مرة كلب ضخم كده يقرب مني.
- بكرة يتعود عليك.

في اليوم التالي حكت لإيناس ونبيل وهي تبالغ في الضحك كيف أن رنجو هجم عليَّ.. وأنني كنت مرعوبا.. بينما أنا أنفي هذا وهي تقسم أنه حصل..

تطلب مني إيناس ألا أذهب لبيت نادين ثانية.. أقول لها إن والدة نادين طلبت مني مساعدة ابنتها..

- تشوف لها مدرسين أو تدخلها المجموعة.. نادين تحاول تشوّه صورتك.. ويمكن عايزاك تفقد الثقة في نفسك.. أنا عارفة طبعها كويس.. وأنا وحنان عندنا شك كمان في حاجات لا أستطيع أن أقولها إلا بعد أن نتأكد منها..
- يا نانا الموضوع بالنسبة لها صعب.. هو فيه عندها مشكلة.. أصل أخوها التوأم مات وهي نفسها تكون أخواتها.
- على كل الأحوال ما تقربش منها قوي.

ظلت نادين محافظة بشدة على علاقتها بنا أنا وإيناس ونبيل وهاني.. بعد أيام تقول لي نادين:

- أنت عارف إن رأفت أبو المجد يحب رجـاء وماشـي معاها وهي مروحة.. يوصلها لحد البيت ويفضل يستكلم هو وهي في المدخل جنب السلم..

تضحك نادين بصوتها الحاد ثم تقول بهمس:

- قال يعني الكلام في المذاكرة والواجبات.. ما هي كلهـا مذاكرة..

تضيف بجدية من يكشف سرا خطيرا:

- امبارح في أولاد في حتتها شافوهم مع بعض وضـربوا رأفت علقة ساخنة جدا.. أخذت بالك إنه النهاردة كان في "بلاستر" على رأسه ويده كانت مجروحة.. أصل رأفت طيب لكن البنت رجاء هي التي سحبته خلفها.

- من قال لك؟

- لا يهم.. لكن أنت مساعد رائد الفصل.. والمفـروض تعرف كل حاجة.. على العموم أنا ممكن أقولك حاجات كثيرة عن سامح وأمجد وفاروق ووفاء وإيناس ونبيـل

وهاني وحنان لو تحب.. كل أخبارهم عندي.. طيب أنت عارف إن هاني لا يحترمك.. أمجد يقول إنــك غبــي.. خالد طول النهار يقول عليك كلام سخيف.. حتى رأفت يقول عليك نكت ساعات..

تحرص نادين على إخباري بأشياء لا يمكن تكون صـادقة فأنا أعرفهم جيدا أو هكذا أتصور.. هاني مشاعره ناحيتي جميلة بالعكس هو طيب خالص ولا يستطيع أن يحتقر أحدا.. أنـا أو غيري.. خالد أنا وهو في غاية التفاهم.. أنا ورأفت نألف النكت معا أحيانا لكن هو الذي يقولها دائما لأن أداءه تمثيلي مـضحك وأنا أدائي جاد.. يعني هو يستطيع إضحاك "طـوب الأرض".. يبدو أن نادين تسعد حين تغضبني..

- أنت أفضل من هاني.. المفروض تكون رائد الفصل..
- ياه خلاص وصلنا سنة سادسة وقربنا نـسيب المدرسـة ونروح إعدادي.. وهاني.. هاني حبيبي جدا.. عمري ما حسيت إن هو رائد الفصل وأنا مساعد له..

- عيب تقول على ولد حبيبي أنت ستعمل مثل نبيل صاحبك.. وهاني لو كان حبيبك كما تقول أو يحمل لك أي تقدير واحترام كان ترك لك مكانه ولو في آخر سنة.. أو آخر شهور.. تحب تكون مكانه..؟!

- الموضوع لا يشغلني.. ولا أستطيع أبدا أن أذهب إليه وأقول له تنازل لي عن ريادة الفصل..

- لا طبعا.. ممكن يظهر قدام الفصل والمدرسين أنه لا يستحق.. ساعتها أنت تحل محله..

- لكن هو يستحق..

- يعني.. ممكن نكتب لواحدة في الفصل ولتكن حنان مثلا جواب على لسان هاني.. يقول فيه إنه يحبها جدا ولا ينسى أبدا الحاجات الحلوة التي يأخذها منها.. وكل واحد يفهم ما يريد.. ونقلد خطه ونمضي اسمه رباعي..

- يا خبر.. أنا عمري ما تخيلت حاجة بهذا المنظر.. أياك يا نادين.. لو حصلت أي حاجة من الكلام ده سأقول للأستاذ نجدي وكل المدرسين..

- لا طبعا.. أنت صدقت.. أنا أضحك معاك.. أنا كان نفسي تكون أنت رائد الفصل.. أنت رضيت لنفسك تكون نمرة اثنين خلاص اللي تشوفه.. لكن على فكرة أنت تفكر فيهم وتحبهم وتخلص لهم لأنك طيب.. هم على العكس منك.. طيب أنت عارف أن إيناس تحب نبيل.. هما صحابك من سنين لكن مخبين عنك.

- نبيل ابن خال إيناس يعني أقارب..

- أنت مش عارف حاجة.. نبيل أكثر واحد يكرهك.. وإيناس تكلم كل الأولاد.. كلهم صحابها..

- ممكن امشي لو سمحت؟

- حتسبني عشان شوية أغبياء.. تعال معايا.

تندفع نادين إلى الدور الثالث.. دورها الذي لم ينته بعـــد.. أصعد خلفها.. خطواتها سريعة وعصبية.. تدخل الشقة الأسمنتية الرمادية ذات الأرضية الترابية.. تتجه لأحد الأركان.. يخــرج من أحد الشقوق "برص" كبير جدا أو "سحلية صغيرة" تلاحقهـــا نادين بضربة من قدمها تطيح بها على ظهرها قبل أن تهرســـها تماما وتسوي بقاياها بسن حذائها المدبب في الأرض.. تعبـث نادين بأشياء قديمة.. تلقيها بعيدا.. تخرج حقيبة سوداء أظن أنني رأيتها من قبل.. تفتحها..

- خذ كراسة مهار.. مسطرة حنان.. قلم ســامح.. كتــاب زيزي.. براية خالد.. ميدالية أمجد.. وهذه صورة لــك على شكل حمار رسمها نبيل.. حاجات الأغبياء الذين لا يحبونك.. وعارف دي شنطة من؟ شنطة إسماعيل فتوة فصلكم اللي محدش يقدر يقرب له.. ودي.. دي نظارة الرجل الأهبل اللي قصادنا..

تكسرها وتحدفها بعيدا.. تلتقط حجرا وتنظر من الفراغ الذي سيصبح نافذة.. تقذف الحجر بقوة لأسفل في شقة الدور الثاني المواجهة لهم.. يتحطم الزجاج..

- أنت عملت إيه؟!

- خايف.. الراجل ده بيعاكس ماما.. وهي طيبة لو قالت لبابا حتبقى مصيبة.. كل اللي بتعمله إنها تقول له "خلي بالك من مدام عواطف", بتفكره يعني إنه متزوج..

- يمكن حد يتصاب من الزجاج المكسور.

- ما تخفش عليهم قوي كده.. هو وعواطف في الشغل وابنهم التخين الأهبل مدرسته بعد الظهر..

مشاعري متباينة ما بين الغضب من نادين والشفقة.. أكيد مرضها له أثر عليها.. كأنها تقرأ أفكاري.. تقول وهي تضع يدهاعلى صدرها كأنها تمسك أنفاسها المتلاحقة:

- أنت عارف أنا عيانة.. عندي القلب.. لازم آخذ الحقن والكبسول.. وأذهب للدكتور كل فترة.. ماما تعبت معي

جدا.. وبرغم كل تعبها وحبها لي عندي إحساس إني سأموت صغيرة لأن ربنا يحبني.. أنا لو كبرت سأصبح كارثة.. رنجو.. رنجو..

تنادي نادين الكلب الأسود الشرس.. تمسكه بقوة وهي توجه رأسه ناحيتي:

- طبعا ما حدش حيعرف حاجة من اللي حصل؟
- أنا لا أحب نقل الأسرار والأخبار.. لكن مش حاقدر أزوركم تاني.

أنصرف وتقول لي إيناس في اليوم التالي:

- أنا متأكدة من أن نادين.. تصدق.. نادين هي التي تأخذ الحاجات التي تضيع منا.. مش قادرة أقول كلمة تسرق.. لكن أنا متأكدة.. امبارح في حصة الألعاب.. أنت عارف إنها تنزل معانا وتلبس الزي لكن تلعب على خفيف.. هي اختفت شوية.. راقبتها على فكرة دي ثالث مرة أراقبها.. وكل مرة ترجع الفصل ثواني.. ونطلع نلاقي

حاجة ناقصة.. آخر حاجة ضاعت إمبارح كتاب "سلاح التلميذ" بتاع زيزي.. الأغرب إني شوفت نادين في "المرواح" خبطت في "دادة نعمة" وقعت منها البسكويت والشيكولاتة.. وبعدين اعتذرت لها وقعدت تلم معها الحاجة وهي تمثل الزعل لدرجة أنها كانت تبكي كأن "الدادة" صعبانة عليها بجد.. أنا كنت سأصدقها.. لكنها فجأة أخذت أكبر قطعة شيكولاتة.. خبيتها في كمها.. أنا كنت أراقبها من بعيد لكني متأكدة..

- مش عارف يا إيناس.. أنا شايف إننا فعلا كما قلت لي من فترة نخفف علاقتنا بها..
- طيب وحق أصحابنا والناس..
- حرام أنا متهيأ لي إنها مريضة.. ومتهيأ لي كمان لن تفعل هذا مرة أخرى.. إن حبيت نكلمها بيننا وبينها ممكن.. أو حتى نقول لمامتها.. لكن نستنى شوية إن

حصلت سرقة تاني وكنا متأكدين إنها السبب نواجهها أو نكلم أمها..

تأتي إلينا ماما سلوى في البيت بعد أيام:

- ما بتجيش ليه يابني.. أنا نفسي يكون لنادين صحاب شطار.. من آخر مرة كنت عندنا وهي متغيرة وبتقعد لوحدها كتير..

- أصل الامتحانات قربت وأنا في الفترة دي بذاكر لوحدي.. لكن إنْ شاء الله يا ماما حاكلمها ولو فيه حاجة صعبة عليها تيجي معاكي وأنا أقعد معاها..

- أنا قلت لها تيجي معايا لكن.. مش عارفة.. بصت في الأرض وقالت لي بلاش المرة دي.. بعدين لما أكون كويسة حاروح معاكي..

تدخل أمي في الكلام:

- هي عاملة إيه..؟.. صحتها كويسة..؟ أخذت الحقن بتاعتها والدكتور طمّنك عليها..؟

- الحمد لله.. ربنا يشفيها وينجحهم كلهم..

ماما سلوى أصبحت صديقة لوالدتي وأحيانـــا تـــأتي معهـــا هدى.. ونادين ابتعدت عنا تماما.. لكن أصبحت هادئة جدا وفي حالها.. ساعات أفكر أكلمها وأقول لها خلاص ممكن الواحد يبدأ من جديد.. لكن أرجع وأقول خلي المسافة بيننا كبيرة أحسن..

آخر يوم في الامتحانات سلمت علينا جميعا.. "ياريت نفضل أصحاب.. أنا حاتغير أو اتغيرت فعلا.. ثم تـــضحك وتهمـــس "والبنت إيناس لا تحب نبيل ولا حاجة.. لكن يمكن يعني يمكـــن يكون نبيل هو.. أقولك خليّ بالك من نفسك.. لن نلتقي بعد ذلك إلا صدفة.. أنا عارفة إنك لا تحب الحديث معي".. تقابلني ماما سلوى كثيرا في شارع النيل.. تحـــرص علــــى أن تـــصافحني وتضع يدها على رأسي بحنان "أوعى تزعل مـــن نـــادين والله نادين تحبك قوي كأنك أخوها.. هي يا بني طبعها صعب شوية مع أنها صاحبة مرض"..

تفرقنا المدارس الإعدادية.. أدخل مع هاني ونبيل وهشام وأمجد إمبابة الإعدادية الحديثة قرب ميدان "الترولللي" القديم.. يدخل رأفت وفاروق مدرسة الإسماعيلية.. أقابل نادين أحيانا.. تؤكد لي أنها تغيرت بالفعل.. "أنا بدأت أحب الرسم قوي.. بعد رنجو ما مات رسمت له صورة كبيرة.. مرة حابقى أجيبها لك تشوفها.. يمكن أزوركم مع ماما أي يوم بعد الفطار أصل أنا والله صايمة السنة دي"..

أيام قليلة ويقول لي رأفت:

- عارف الصبوان اللي كان في شارع النيل امبارح كان بتاع مين؟

- مين؟

- نادين -الله يرحمها- وقعت وهي راجعة من المدرسة قبل ما تدخل شارعهم عند المحطة.. وتاكسي صدمها.. ودوها المستشفى وماتت قبل آذان المغرب..

تختنق الدموع والذكريات والمشاعر.. أكاد أرى ماما سلوى وحيدة تقف على الناصية عند مدخل الشارع.. والبيت الذي أعرفه جيدا.. على الشمال.. والدور الثالث الذي لم يكتمل بعد.. مكتوب أسفل فتحة نافذته من الخارج بالفلوماستر الأحمر احترس هنا فيلا نادين ورنجو ومرسوم جمجمة سوداء.. وتذهب أمي وحدها للعزاء "أنتم أطفال وصعب على والدة المرحومة تشوفكم"..

سأفقد السيطرة على أعصابي لفترة أبدأ في التردد وإعادة الكلام وفعل الشيء أكثر من مرة والنظر خلفي كثيرا.. حاجات سأظل أعاني منها طويلا.. أطياف أراها لا وجود لها.. أرد على أحد غير موجود بجانبي.. ثم تأتي الكوابيس الشرسة القاسية التي تختنق فيها وتنادي دون مجيب.. وتظن أنك نهضت وتمارس حياتك فإذا برنجو يهجم عليك وهو يبحث عن نادين التي اختفت ولا يعلم أحد مكانها.. وحيوان زاحف غريب ملقى على ظهره تدهسه ساق من حديد أحمر ملتهب كالذي يدق عليه

خليل الحداد بمطرقته الثقيلة التي ترتفع لتسقط على رأسك..
دموع ماما سلوى التي تتحول إلى حمم بركانية تهاجم جموعا
من الأطفال المشوهة.. ثم تصبح فيضانا يتدفق فيغرقنا جميعا..
تهدأ الكوابيس وتتكرر الأحلام التي تتحرك فيها نادين صامتة
حزينة بملابس داكنة ونظرة خصام فيها إدانة غير مفهومة..
وأخيرا تبتسم نادين وتغير ملابس الحداد.. تأتي من بعيد كطائر
أبيض يعبر النيل قادما إلى المدرسة.. يحط في فناء أحمد
عرابي ونتجمع حوله.. يذوب عن أبصارنا في نور فضي ثم
تظهر نادين طفلة لا مثيل لبراءتها.. يسري صوتها نقيا
وصادقا.."والله يومها كنت صايمة أنا مامتش من صدمة التاكسي
أنا قلبي تعب فوقعت.. يعني ماتزعلش أنا تعبت لحظة صغيرة
بعدها ما حسيتش بحاجة.. والله أنا ما أخذت حاجة من حد تاني,
طب لو عايز تقول لزملائنا إني كنت باسرقهم قل لهم بس أنا
رميت الحاجات دي يعني مش موجودة في حاجاتي اللي ماما
احتفظت بها.. سلم لي على ماما سلوى.. سلم لي على ماما.."

تطير نادين فوق ساحل فيروزي شفاف.. تنزل في قلب الماء.. تخرج وهي في قمة تألقها.. تنفض عنها الماء العطري الذي يتناثر حولها كألوان صواريخ العيد في فضاء صاف.. تحلق نادين في سماء بيضاء طاهرة وتغيب وهي تلوح لي: سلم على ماما سلوى.. زرها وخليهم يروحوا معاك.. هي حتفرح لما تعرف إن عندي صحاب بيحبوني.. ما تخافوش منها هي بتحبكم كلكم.. مش عشان أنتم هنا وأنا هناك حتزعل منكم.. بالعكس دي حتفرح بكم جدا وحتلاقيني في وسطكم..

في طريق العودة من المدرسة بعد شهر أجازة بسبب حرب أكتوبر خلصت فيه أيام رمضان والعيد الذي لم أخرج فيه لأي مكان يدق قلبي ونحن نقترب من الشارع الجانبي الصغير.. أتمنى أن أجد ماما سلوى دون الوصول إلى المنزل.. أتمنى أن تلمسنا نظراتها.. أن تجد فينا شيئا من نادين.. لم نجدها ولم نغير قرارنا.. "حنروح البيت؟".."أيوه".. يسري صوت الجرس الكهربائي حزينا وتمر الثواني ثقيلة ولون الحداد الأسود يخيم

على مشاعرنا حين تفتح هدى الباب.. وتدخل ماما سلوى ترتمي في أحضاننا وتبكي كما لم يبك أحد من قبل. تقبل أصابعنا الصغيرة ودموعنا الساخنة.. "أهلا حبايبي أهلا, تعالوا ياولاد اتفضل يا شريف تعال يا حبيبي أنت عارف البيت كويس تعال يا رأفت.. أقول لها "هاني وسامح وإسماعيل وإيناس وحنان".. "أهلا يا حلوين أهلا.. قلتم في البيت إن أنتم حتعدوا على مامت نادين؟". اهتزت رؤوسنا ولم نرد, أحضرت لنا بسرعة الغداء.. شريف يحب الشاي بلبن بعد الأكل.. حاعمل لكم كلكم بسرعة.. نأكل ونشرب ونسمع كثيرا ونتكلم قليلا فلا نعرف ماذا نقول.. نستعيد معها أحداثا كثيرة في ساعة إلا الربع كانت أصعب حصة في حياتنا قبل أن تخرج معنا حتى شارع النيل, تقبلنا جميعا, تضمني برفق "ابقى تعالى يا حبيبي, لما شوفتك كأني شوفت أختك نادين بالضبط".. عند المصبغة وقف رأفت وأشار إلى بقعة في الطريق وانحبس صوته حتى انفجر بالبكاء "هنا.. هنا يا شريف.. كنت مع صحابي نمشي من ناحية البحر وكانت

عيني عليها لا أدري لماذا خاصة بعد أن تركتها صاحبتها وذخلت من عند "أسترا" على السوق.. لما سمعت "الفرملة" عديت الشارع في ثانية لقيتها واقعة على الأرض ويدها على قلبها والحقيبة جنبها و"قرخ" ورق أبيض كبير يمكن كانت سترسم عليه خريطة او لوحة للعلوم.. وكلمتني يا شريف والله اتكلمت يا شريف وقالت لي خذ حاجتي يا رأفت وقل لماما.. وراحت يا شريف.. راحت.. بكينا جميعا ونحن نحاول تهدئته ووصلناه لغاية البيت.

تأتي نادين "متشكرة إنك رحت عندنا, ياريت تشوف ماما مرة كل أسبوع, أنا وصيتها تقابلك يوم الخميس في حجرتي, حتلاقي على مكتبي تحت النتيجة صورتك التي ضاعت منك يوم ما كتبنا الاستمارات, صدقني أخذتها غصب عني, خدها بس احتفظ بها كما هي"..

أذهب لماما سلوى وعم فتحي يوم الخميس بعد المدرسة.. تحضر لي الغداء والشاي الأبيض..

- أول مرة نادين تزورني, كانت حبيبتي حلـوة ورقيقـة, تعالى نقعد في حجرتها..

أدخل وأشعر بها في كل مكان, تقودني عيناي وخطواتي إلى المكتب, أرفع النتيجة أجد صورتي واقرأ كلاما مكتوبـا خلفهـا بخط يشبه خطي "إلى خطيبتي الغالية نانا أحسن بنت في الدنيا" ومكتوب اسمي الرباعي بخط الرقعة الذي أحبه جدا, تقترب مني ماما سلوى وتحدثني عن بنت صغيرة "كانت دايما تقف هنا في المكان نفسه الذي تقف فيه الآن تماما, تنظر في المـرآة وتقلـد حركاتك, وساعات تتكلم بسرعة قوي مثلك يا حبيبي, وتقول لي هو بيتكلم ليه بسرعة كده, هو فيه حد جواه بيغششه!! هو أنـا مش ممكن أدخل في عقله وآخذ منه الكلام وأعرف الحاجـات اللي بيفكر فيها؟".

كل يوم خميس نلتقي.. وتمر الأيام.. يكتمل الدور الثالـث, يتأسس لنادين الصغيرة أخت المرحومة, ماما سـلوى أصـرت

على الاسم وعم فتحي سمع كلامها.. "ماحـدش حيـذاكر لهـا غيرك" أنت ونانا.. أردد متسائلا في شيء من الدهشة:

- نانا..؟!

- أيوه يا حبيبي نانا.. إيناس زميلتكم.. تأتي إلينا كل كـام يوم.. تسلم علينا وساعات تتغدى معايا وتحكي لي عـن حاجات حصلت لكم وإن غابت عنـي شـوية تتـصل بالتليفون وتفضل تكلمني نص ساعة..

- إيناس على صلة بكم..؟!

- أيوه يا حبيبي ربنا يخليها..

لم تقل لي إيناس أبدا هذه الحكاية.. عندما أسـألها تتـأملني طويلا:

- مكان لك فيه ذكريات.. وحبيت أهله.. وحريص علـى علاقتك بهم.. وتذهب إليه مرة كل أسبوع.. لازم أشوفه وأعيش فيه لحظات أنت بتعيشها.. ده طبعا في البداية.. لكن أنا حبيت ماما سلوى قوي.. عارف هي حاجة ثانية

خالص غير نادين -الله يرحمها- أنا حسيت إنهـا مـن أسرتي لدرجة إن فيه حاجات أكلمهـا فيهـا ولا أكلـم ماما..وكنت متأكدة إنك حتعرف منها فسيبت لك فرصة تعرف عني حاجة لا تعرفها..

كل يوم أعرف إيناس أكثر.. أصبحنا نذهب معا أحيانا لماما سلوى ونادين الجديدة التي تكبر أمامنا يوما بعـد يـوم وتظـل محتفظة بالشبه الوحيد بينها وبين نادين الراحلة.. تظل العينـان ضيقتين حادتين ولكنهما مسكونتان بطيبة ماما سـلوى الهادئـة الراضية..

بعد أعوام كثيرة حين أخبر ماما سلوى أنني سأخطب تبتسم:

- أكيد نانا..
- لا.. ما فيش نصيب..
- يا خبر بس أنا متأكدة يا بني إنها..
- وأنا كمان يا ماما لكن القسمة كده..

تضع يدها على رأسي بأمومة لا حدود لها ثم تضحك في محاولة لتخفيف الشجن:

- خلاص بقى مادام العروسة واحدة غريبة مش كنت تستنى نادين الصغيرة لما تكبر شويه..

أنظر إلى صورة كبيرة قديمة أبيض وأسود لبنت ذكية شقراء عصبية الملامح ضيقة العينين.. كأن شريط الحداد "توكة" في شعرها القصير.. أمسك الصورة وأمسحها برفق كأني أمسح دموعا مازلت تتحدر في شلال الذكريات.. وأتلمس في حافظتي صورة صغيرة لي وأنا في الثانية عشرة خلفها كلام لم أكتبه بخط مثل خطي تماما وعليه اسمي كما كنت أكتبه وقتها..

حائط شريف

- السينما والنادي والكلية والأيام الحلوة.. فاكر.. كنا أقرب الناس لبعض.. والصحاب والزملاء والدكاترة والرحلات ومسابقات الشعر والقصة وفريق المسرح.. فاكر أيام "بطن الزير" في شارع "أبو الفدا" كنا ننزل في قلب النيل عند كافتيريا عم إبراهيم النوبي ونقارن بين عمارات الزمالك الضخمة وبيوتنا الصغيرة ناحية إمبابة.. وترجع بنا الذكريات نلاقي نفسنا جوه أحمد عرابي.. أربع سنين ونحن نلتقي مع أصحابنا في تجارة خارجية نقعد معاهم ونشاركهم في كل حاجة وتعانق عيوننا مدرستنا في الجهة الأخرى.. نراهم في فصلنا الجميل الذي رسمنا ملامحه بمجلاتنا ولوحاتنا والعلب "الكارتون" الفارغة التي صنعنا منها عمارات ومصانع وجوامع وكنائس ومدارس وكور "البنج بونج" التي أضفنا إليها "الخرز والترتر" وعملنا منها ميداليات علقنا فيها مفاتيح الفصل والمكتبة وأدراج المدرسين.. أنا عملت ميدالية بمفاتيح الأستاذ نجدي لأني كنت أحبه جدا هو الذي علمني الخط

والرسم.. يا سلام أيام.. فاكر هاني وحنان وهشام ونبيلة وأمجد ورأفت وفاروق ورجاء ونادين -الله يرحمها- ولما رحنا تجارة عرفنا سهير ويمنى ورانيا ورباب وألفت.. لكن أنا كان لي هدف واحد أن أجد إيناس سامي.. فاكر إيناس.. أنا لما عرفت أنها دخلت تجارة خارجية أصبحت أحضر فيها أكثر من اقتصاد وعلوم سياسية بالقاهرة التي دخلت فيها قسم اقتصاد لتكون دراستي قريبة منها.. وأجمل حاجة إني قابلتك هناك وقابلنا إيناس.. وكأننا نعيد أيام سادسة أول.. أيام إيناس الحالمة التي كانت تجلس في الركن الأخضر بجوار المكتبة وهي تسند رأسها الجميل وتسرح بعينيها بعيدا وأناملها الرقيقة تمسك لغز البيت الخفي لمحمود سالم أوديوان ليالي الزمن المنسي لمجدي نجيب أو رباعيات صلاح جاهين.. فاكر إيناس الجريئة القوية المنظمة الواثقة وهي تناقش الأستاذ رمزي المخرج الذي كنا نخشى جميعا معارضته.. فاكر إيناس الطاقة المتوهجة المنطلقة في بروفات مسرحيتنا.. فاكر لما نزلنا "وكالة البلح" مع الأستاذ محمد عطية و"ميس" سميرة واخترنا

ملابس التمثيل وكانت معانا.. ومشينا على كوبري الزمالك القديم قبل ما يتهد وكوبري أبو العلا الجميل قبل ما يتفك.. ويوم ما عرضنا المسرحية على مسرح الوزارة في العجوزة.. أنا وأنت كنا عاملين دورين لأعضاء الأمم المتحدة وهم يرفضون العدوان.. أنت لابس فرنسي مثل نابليون وأنا لابس لاتيني مثل جيفارا.. وجميل لابس حاجة هندي قميص أحمر طويل وبنطال أبيض وعلى رأسه عمامة "موف" ضخمة.. مع أن الموضوع جد لكن شكله كان "مسخرة" خاصة وهو ماشي في الشارع بهذا المنظر يوم "البروفة".. وصوت الكورال خلفنا فيه رأفت وأمجد ورجاء.. "مين اللي قال إن العدو.. حيعيش على أرض العرب.." وإسماعيل كانت أمامه كل آلات الإيقاع وأخته سمر كانت تعزف الإكسلفون.. كان يوما رائعا.. كانت إيناس فيه نجمة.. نجمة بحق وحقيق نظرتها بحر وسما.. خطوتها أمل.. ضحكتها فجر يبتسم لقلوب كانت تتهجى كتاب الحب وقتها.. فاكر المخرج الإذاعي الذي أخذها هي وحنان للتمثيل مع سناء جميل لأن صوتها عبقري كما قال..

- تصدق يا شريف أنا عمري ما قرأت حاجة على ال face book بهذا الجمال والروعة.. والطول.. مازال نفسك طويلا جدا في الكتابة كما كنا زمان أيام مجلة "في موكب الخالدين".. الأستاذ نجدي يقول لك: يا شريف يا بني ما الذي يربط بين ابن طفيل وموتسارت وعبد الهادي الجزار.. فتقول له: كل واحد أضاف حاجة للعالم وكتب اسمه في التاريخ.. طبعا أنا فاكر كل حاجة.. لكن لا أستطيع أن أجاريك..
- أنا نفسي طويل.. طيب ماذا تقول عن هاني.. يا بني هاني كان يكتب مواضيع الإنشاء ويوزعها على الفصل.. الغريب إن بعض الذين أخذوا ما يكتبه كانوا يحصلون على درجات مثله وساعات أعلى.. وحنان أقل موضوع تعبير عندها كان يأخذ ثلاث صفحات..
- هما الآن واحد أستاذ جامعي له أكثر من عشرين كتابا والثانية صحفية ومؤلفة مسلسلات.. يعني الكتابة أصبحت أكل عيش بالنسبة لهما.. لكن عارف أنا مرة لقيت هاني في التليفزيون يوم ما أخذ الجائزة مع فاروق

شوشة .. والله كأنه لم يتغير.. الكلام المؤثر والحماس والنظرة الساحرة.. أنا كنت سعيدا به..

- ومسلسل حنان الأخير شاهدته..
- قل عشته.. تقريبا عرضت حكايتنا.. لكن أجمل حاجة إسماعيل وهو عامل دور عم "أبو المجد" والد رأفت.. أنا بكيت لما قعد يفتكر ابنه المفقود.. كلمت رأفت وقال لي أول مرة أصدق إن سمعة فرغلي ممثل بجد.. كان يتكلم وكأنه عمك أبو رأفت بحق وحقيقي..
- طيب.. أنا سأتركك الآن لأن ابنتي إيناس تناديني للعشاء.. ما رأيك نلتقي مساء الخميس في كافيه قصاد الجامعة الأمريكية أول محمد محمود.. سأنتظرك.. كلمني أول ما تدخل الشارع.. رقم المحمول أمامك.. قل لي رقمك.. سأسجله الآن.. سلام مؤقتا..
- سلام يا شريف..

صديقي الذي وجدني فجأة بعد كل هذه السنوات.. هنا على الشاشة العنكبوتية التي يسبح فيها العالم بكل ما فيه من مشاعر مكبوتة ومتناقضة يستحضرني بلمسة آلية تبث في روحي أمواجا متباينة .. شريف الذي سرت معه خطوات لا حصر

لها.. سهرنا وخرجنا وأكلنا وشربنا وكتبنا ومثلنا ولعبنا وافترقنا أراه الآن هنا عبر المسافات.. يطلب مني قبول صداقته.. وهو الذي منحني صداقة رسمت لي حدودا وأعماقا.. أدخل إلى حسابه.. اقرأ كل كلمة على حائطه وفي مذكراته.. قبل أن يكتب لي وأتواصل معه مباشرة بعد كل هذا الزمن.. يفتح قلبه ويطلق أنامله على لوحة المفاتيح فيبوح بالذي كنت أعرفه وأكرهه وأحبه من أجله.. اقرأ ما يكتب.. ثم أسمعه في نفسي قبل أن يتردد صوته في فضاء منزلي الفخم حصيلة عشرين عاما من الغربة.. منزلي البارد الذي لا يتنفس فيه معي سوي القط الفارسي؟.

تعتصر الآلام قلبي وإن كانت الذكريات تعيد زمنا جميلا له شذاه الذائب في زهور الروح.. يكتب شريف كسحابة تمطر في صحراء الفقد التي تحيطني ولم تعد لي فيها صلة إلا بأصدقاء الوهم.. التقي بهم في هذا المستطيل المشع الذي يلتهم بقايا البصر.. شريف لم ينسحب إلا بعد موعد محدد بالمكان والزمان.. دقيق كعادته.. لم يأخذه من نهر الذكريات الجارف إلا صوت إيناس.. إيناس ابنته.. لقد أصر على الاحتفاظ بها والتجدد معها.. ويوم الخميس في باب اللوق الذي قطعته خطانا

ذهابا وإيابا في مقهى الحرية والبورصة والندوة وحاتي الجمهورزية وجروبي طلعت حرب حين كنا نلتقي نحن الثلاثة في الثمانينيات.. وسيحدثني عنها.. إيناس

- فاكر.. كانت أجمل بنت في الدفعة.. في المدرسة والقسم والكلية والجامعة..كانت أجمل بنت فيك يا مصر.. أجمل واحدة شفتها بالعين والقلب.. أجمل صوت سرى في نفسي ومازال صداه صافيا كأني أسمعه الآن.. فاكر الأيام الحلوة التي لم نر مثلها منذ افترقنا..

صديقي الذي أحببته كأخي منذ أن شكلنا فريقا واحدا في إعداد مجلة الحائط.. وقتها لم يرحب أحد بمشاركتي.. نادين قالت الجملة التي احمر لها وجهي وابتعدوا بها عني كلهم إلا شريف..

- نبيل له ولد صاحبه "أمور"..حاجة بيضا آخر دلع.. أحلى من البنات.. الظاهر في بينهما حاجات "قلة أدب"..

يأخذ رأفت الموضوع نكتة.. وكل ما يراني مع ولاء يقول:

- "عايزين بقى نفرح بعيالكم.. أنتم حتخلفوا من بعض إمتى.."

كان ولاء طيبا وضعيفا وأحببته بمنتهى البراءة كأنه أخي الصغير.. لكن الإشاعة طلعت وانصرفوا عني.. شريف ومعه إيناس ظل تعاملهما معي عاديا ورائعا.. ولم يعد لي علاقة بأحد غيرهما بعد هجرة ولاء مع أهله لأمريكا.. نادين وظفتني عندها في مهمة ولما طلبت مني أكمل رفضت ودفعت الثمن.. دخلت لي من باب الإخلاص والدفاع عني:

- إسماعيل شايف نفسه عليكم لكن فيه ناس يعمل لها حساب وناس طول الوقت يشتم فيها ويتريق عليها.. بصراحة يا بلبل لولا مكانتك عندي وحرصي على صورتك في الفصل كنت سكت.. لكن لا أستطيع.. عارف إن اسمك عنده "الخروف".. الخروف راح.. الخروف جاء.. أمس قلت له عيب بلبل صاحبنا وطيب.. قال لي: لكنه خروف.

أذهب لإسماعيل وأواجهه فيضحك: يا بني أكيد الذي قال لك هذا عايز يقول لك إنك خروف.. لكن بصراحة أنت صغير على الخروف.. أنت برج الحمل.. صح.. خلاص لما تكبر ستكون الرجل الخروف.. ماشي يا بلبل.. هز "اللية" بقى واتكل..

يدفعني إسماعيل فأقع ويضحك.. نادين من بعيد تراقب.. تأتي نحوي وتأخذ يدي:

- خلاص بقى يا سمعه عيب هو بلبل حملك..

تقول لي:

- هو أقوى منك.. لكن ممكن تنتقم منه وتظهر للفصل كله إنه ضعيف.. ما رأيك تأخذ حقيبته السوداء الجديدة..

- أسرقها يعني..

- أنت لك حق عنده.. وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.. هو جامد قوته في جسمه.. خلي قوتك في عقلك.. أقول لك.. عندما يلعبون الكرة بعد الدراسة يضعون الحقائب جنب "العارضة الطوب" أول ما اللعب يشغلهم خذ حقيبة إسماعيل..

- وماذا أفعل بها..؟!

- أنا أخلصك منها..

أنفذ الخطة.. أخطف الحقيبة لحظة احتفال إسماعيل بالهدف.. أجد نادين أمامي تأخذها مني وتختفي.. في اليوم التالي كان ضياع حقيبة سمعة هو موضوع الساعة.. حاول يظهر كأنه عادي ويغير الكلام: لكن الجول الذي سجلته كان

تحفة.. هي اللحظة الوحيدة التي غفلت فيها عيني عن الحاجات.. أخذها ابن اللئيمة..

يقول إسماعيل وهو ينظر ناحيتي كأنه متأكد إني أنا.. كأنه يقصدني بابن اللئيمة.. لم أكن غاضبا بالعكس في أعماقي كنت فرحا إنني نلت منه.. لقد أخذت حقي لم تكن الحقيبة تهمني ولا أعلم ماذا حصل لها.. نادين جاءت بعد أيام:

- سمعه ظهر قدام الفصل كله غلبان وخايب يا عم.. يعني عرفته مقامه..
- البركة فيك يا نادين..
- ماشي.. لكن عايزة منك خدمة..
- لو أقدر عليها لن أتأخر..
- بسيطة.. البنت إيناس واحد عزيز عليها أكيد أهداها قلم أخضر على شكل ورقة شجر في عيد ميلادها.. طبعا لا يغلى على نادين التي تفكر دائما لمصلحتك..
- أسرقه..
- وهي أول مرة يا بلبل..
- لا يمكن..

- أنت أقرب واحد "للديسك" وأنت ماشي ضع يدك واسحب القلم ولا من شاف.. ولا من عرف حكاية شنطة سمعه.. وأنت عارف سمعه "إيده طارشة"..

أرفض بشدة.. القلم جاء لإيناس من عمها.. إيناس أيضا قريبتي من ناحية الأم وكل يوم نأتي معا ونرجع معا.. كيف أسرقها.. أحيانا أغار عليها من شريف الذي يخبئها كثيرا ويذهب ويعود معنا لدرجة جعلتني أتساءل إذا كان يصاحبني ليكون قريبا منها لكن أسرقها وأنا أعلم كم هي سعيدة بهذا القلم جدا.. أسرقها.. يعني أتحول إلى لص أو هكذا أصبحت من وجهة نظر نادين.. لا أنا لست لصا ولن أكون وموضوع إسماعيل كان له سبب أما إيناس.. لكن إيناس حريصة جدا على مشاعر شريف أكثر مني أنا قريبها.. طيب ماهو شريف أيضا لم يرتكب ضدي إساءة بالعكس هو دائما يساعدني لو احتجت حاجة ويوم "الخناقة" بذل جهدا في سحب إسماعيل بعيدا وعاتبه.. ولما اشتركنا في عمل المجلة كان يظهر سعادته بكل ما أفعل وقال للأستاذ نجدي: "تبيل أكثر واحد اشتغل فينا".. لا يا نادين لن أسرق أبدا.. بعد يومين يختفي القلم.. ويفتعل إسماعيل معي مشاجرة ويضربني.. ونادين تنظر من بعيد وتضحك.. يخلصني منه هاني وشريف..

"قلبك أبيض يا سمعه.." يعني أنا قلبي أسود.. ربما قالت نادين له إني حرامي الحقيبة وربما قالت لهم جميعا.. لا أعلم.. لم أحدثها أبدا بعد ذلك.. ولم تلتق عيناي بعينيها.. ولما ماتت خفت جدا.. خفت انتقام ربنا.. وبكيت كثيرا.. ودعوت الله أن يغفر لي ولها.. ولم يعلم أحد موضوع الحقيبة إلا شريف.. قلت له وطلبت منه أن يظل هذا سرا.. لم يتغير من ناحيتي بالعكس.. كأن أعترافي له منحه شعورا بقيمته عندي وبصدقي معه.. لكن يمكن.. يمكن في أعماقه كان سعيدا إن لي خطأ.. يعني يستطيع أن ينظر لي من أعلى.. أحيانا كنت أشعر فعلا أنه يعاملني من فوق كأني أقل منه.. لكنها مسألة شعور يعني حاجة تخصني أنا ربما لم يقصد هو ذلك أبدا.. لكنه ظل أقرب واحد لي وأكثر واحد تأثرت به..

شريف صديقي الذي أستعيد الآن حبه وزمنه الذي أفتقده مع ما تسرب من بين أيدينا وأنظر إليه كأن السنوات الطويلة قد ذهبت وابتلعت الغربة والوحدة والفقد الذي أحاط بنا.. وألمح الصفاء في عينيه الخضراوين كلون الشاي الذي طلبه لي رافضا أن أتناول الشاي التقليدي الأحمر..

- جرب معي الشاي الأخضر.. اطلب ما تشاء أنا عازمك.. عمال المحل كلهم أصحابي لن يقبلوا منك شيئا.. لن نكون أكرم من الأيام التي جمعتنا.. كم منحتنا الصداقة والحب وأحلام المستقبل ومشاريع الحياة.. كم اشتقت للحظة العودة هذه..

تحدث يا شريف.. تحدث.. لم أستمع إلى صوت صادق من زمان..

- فاكر.. أجمل الأيام عشناها.. من قال إننا لم نعشها.. أحلى بنت شفناها وتكلمت معها وظلت صورتها في عيني.. وحينما ابتعدت عني بلا سبب ومرت الأعوام دون أن أعرف عنها شيئا تزوجت وأسميت بنتي على اسمها "إيناس".. لازم كل يوم الصبح أقبلها وأوصلها بنفسي المدرسة.. عارف أنا أعذر المدام كل العذر لما تغير منها خاصة لأنها ليست أمها.. وفاكرة إني أحبها أكثر من ابننا سامح.. أنا ساعات أرى في ابنتي شيئا من إيناس الحقيقية.. تصور.. حتى كلمة "الحقيقية" هذه غريبة.. يعني في إيناس أصل.. وأنا أحاول تقليده..

تصور إن الواحد يقضي عمره كله على أمل استعادة شيء كان معاه وفقده..

نظرت إليه.. قلت:

- وأحيانا لما يحصل عليه يزهد ويتمنى يفقده..

- يمكن يا بلبل.. أنا لم أجرب هذا الشعور..

- لعل شخصا ما وشى بك عندها وأنت لا تعرف؟

- ممكن.. أكيد لو حصل.. هذا الشخص يكون أكبر نذل..

مددت يدي أشد على يديه ونحن نتهيأ للانصراف وقلت له:

- على فكرة أنا كمان بنتي الوحيدة اسمها إيناس.. بنتي اسمها إيناس يا شريف على اسم إيناس قريبتي التي كنت تتمنى الارتباط بها لكني لا أراها إلا يوما في الشهر.. فهي مع أمها..

- أنت منفصل..؟!

- منفصل عن كل حاجة.. لا أكاد أرى شيئا يجمعني بأحد أو علاقة ناجحة في حياتي منذ أن كنا معا.. أنت وأنا وإيناس.. إيناس سامي يا شريف التي تقول لي لأول مرة الآن صراحة أنك كنت تحبها.. وأنا كنت متأكدا من هذا تماما طول الوقت.. إيناس سامي أم بنتي الوحيدة التي أخذتها وتركا لي المنزل.. رفضت حتى المؤخر والنفقة.. قلت لها بصدق: خليك في البيت

مع البنت وأنا أشوف شقة ثانية.. لكن لم تقبل مني شيئا وانفصلت عني منذ سنوات..

- أنت الند....... لماذا يا نبيل.. لماذا.. كنا أقرب الناس لبعض.. لما الأيام جمعتنا في تجارة لم يأت في بالي أبدا إنك ممكن تحب إيناس.. يعني بالعقل والإحساس أكيد عارف إن في بيني وبينها مشاعر من زمان..

- لا أستطيع أن أقول لك إنها أحبتني أبدا.. ولا أعرف إن كنت أحببتها هي لشخصها أم لا.. لكن صدقني أنا كنت أحب من تحب.. يعني أنا حبيت حبك لها واختيارك لشخصها.. شريف.. شريف أنا كنت أرى العالم تقريبا عن طريقك.. كان يعجبني كل ما تقوله.. لذلك رأيت إن أفضل واحدة في الدنيا هي إيناس التي أدركت أنت قيمتها.. أنا لا أساوي شيئا أعترف لك.. لكن أعترف لك أيضا بأن حبي لك أنت أقوى من حبي لإيناس.. حينما كنا أصدقاء كانت حياتي حاجة ثانية كلها حيوية ودفء.. حتى إيناس كان لون عينيها يصفو ويتألق عندما تستمع لك.. ملامحها تتشرب كل أنوثتها حينما يلمسها كلامك العادي.. أنا لم أشعر معها بهذا أبدا مع إننا كنا زوجين.. أنت فاهم.. عارف أنا يمكن عملت صفحة الface book على أمل إننا نتقابل.. لقد

تجاوزنا الأربعين ولم يعد العالم هو العالم.. أرجوك سامحني ولا تبخل عليّ بصداقتك.. يعني يفصل بيننا شيء من العلاقة الجميلة التي جمعتنا.. أنت ربنا فتح عليك وزواجك الأخير ناجح وعندك أولاد يحبونك ويقدرونك.. أنا لم يعد عندي حاجة.. إيناس الصغيرة الآن في الجامعة.. يوما بعد يوم تبتعد عني.. أحيانا كثيرة تعتذر عن لقائنا الشهري.. تصور.. العمر قضيته في غربة.. سافرت الرياض بعد الزواج كأني أهرب من حكم بالسجن مدى الحياة.. لما عدت بعد سبعة أعوام على أمل أفضل في مصر دخلت في تجربة فاشلة نتيجة انصراف إيناس عني.. إيناس أصرت على الطلاق كأنها ما صدقت إنها رجعت مصر وجاءت حكاية نادية كملت على ما بيننا.. عدت للرياض سنينا أخرى.. ورجعت عندي شركة إعلانات والحياة مستورة.. لكن في نفسي فراغ كبير قوي.. أنا أخذت ألبومات صورنا القديمة حينما كنا معا أنا وأنت وإيناس قبل الزواج وعملت منها فيلما على الكمبيوتر.. كل يوم أشوفه وأتمنى الزمن يرجع بنا لهذه الأيام..

ينهض شريف ويمسك يدك المرتعشة.. تستسلم له وتمضيان معا كما كنتما تسيران زمان.. ويسألك:

- هي بنتك إيناس في أي كلية..؟

تحدثه كما تحدث نفسك تاركا شريف يقودك كما كان يفعل دائما ولم تسأله أبدا: "إلى أين نحن ذاهبان".. تقول له كل شيء دون أن يلومك.. كأنه كان يعرف وكأنه هو الذي كتب لك "السيناريو" لتفعل كل ما فعلت..

شريف.. هل أنت برئ؟

السؤال الذي أطرحه الآن على نفسي بعد أن التقيت بنبيل.. كنت أعرف أنه سيأتي مثلما كنت واثقا في وقت ما أنه هو الذي دبر موضوع الخيانة الذي كنت أنتظره منه.. إيناس ستظل لي حلما وليأخذ هو الوهم الذي يظنه حقيقة.. ولن يبتعد.. لأني سأعود لأرى صورتي في المرآة التي بيننا.. المرآة التي صنعناها معا أيام عرابي.. ومع ذلك فالشجن حقيقي والألم صادق والبوح صادم.. قد تكون المعرفة في أعماقنا ولكنها حينما تتحول إلى كلمات يقولها آخر بصدد علاقتنا معا تكتسب حضورا مختلفا..

لم أنم يوم قابلت "نبيل" إلا في الصباح.. بعد صلاة الفجر أغلقت النور وانزويت وحيدا في حجرة المكتب.. وبكيت.. بدا صوتي غريبا عني في البداية ولكني تذكرته واستعدت نفسي..

استعدت يوم رحيل نادين.. ويوم ما وجدتني إيناس سامي في المكتب مع امرأة لا تساوي شيئا دفع لها نبيل وقتها مبلغا وقدره لتمثيل دور قذر في حياتي.. وتذكرت يوم رحيل أم ابنتي الكبيرة إيناس.. والأيام المريرة التي عاشت فيها البنت مع زوجة أبيها هذه المرأة هي الوحيدة في الدنيا التي خدعتني فعلا.. كانت من المعارف الفقيرة التي تساعدها أم إيناس ولما ماتت الست الطيبة زحفت مثل حية في طريقنا الحزين حتى وضعت يدها على كل شيء وكانت قسيمة الزواج راية انتصارها التي رفعتها من مكانة الخادم المضحية إلى مصاف القادة الظافرين.. ولم يتم الطلاق إلا بحصولها على عشرات الآلاف دخلت بها عالم سيدات الأعمال.. لماذا تركت إيناس يا شريف.. لماذا.. خيانتك لها لم تكن بتدبير نبيل الذي جاء نادما وإنما أنت الذي ألهمته فهو لايتحرك إلا بأوامرك التي تصل إليه بالحبر السري.. الحبر.. الحب.. إيناس.. نانا.. نوسة.. نوم.. نام ياشريف.. نام.. نا.. ناس.. ناس غريبة تتسل من بين الأوراق وتتجرف في النور الأحمر الخافت المنبعث من إشارة التلفاز المغلق تحملها الأشعة الباهتة في صورة مماثلة لعرض فيلم سنيمائي على الشاشة السوداء التي أراها وحدي.. كل الناس تندمج في

كائن واحد نبيل بوجهه الصغير المدور مثل ليمونة ذابلة يضحك فتتساقط منه أسنان سوداء مخيفة ويمتد لسانه الأحمر الملتهب ليعيدها مرة أخرى لتجويف فمه العميق.. "تريدها.. تريد إيناس سامي.. أحضرتها لك.. ادخلي إلى حبيبك.. زوجك العزيز.. يتلاشى نبيل في دخان أزرق وتحل محله هيام زوجتي الثانية تجرجر في يدها اليسرى ابنتي إيناس.. "حرام عليك البنت صغيرة".. "أتسمي هذا الشيطان بنتا؟! انتظر حتى أنجب لك أنا.. وهذه نلقي بها للقطط والكلاب".. تمد يدها الثانية لإيناس وتحولها لقطع كأنها تفكك دمية "ماذا تفعلين يا مجرمة؟!".. "تريدني أن أعيدها كما كانت.. أريد مائتي ألف جنيه وشقة الرحاب.. ما أنت ربنا فتح عليك.. نريد أن نعيش مثلكم".. تحتضن أشلاء البنت.. وتنظر إلى وجهها فترى نادين.. تضمها وتبكي.. يحتضنك رأفت أبو المجد "لا تخف على إيناس.. إيناس هناك في القاهرة الجديدة.. نحن هنا في إمبابة.. إنها نادين.. الله يرحمها.. أنا كنت جنبها لما حصلت الحادثة.. غدا نذهب معا إلى ماما سلوى.." تصحو على يد زوجتك وفاء.. "شريف.. شريف.. مالك؟! لماذا تنام هنا؟!".. "ناد..رأ.. إيناس.. أين

إيناس؟!".. "في حجرتها.. انهض معي.. استرح في حجرة النوم.. سأصب لك "الكركدية" يمكن ضغطك مرتفع.."

تمنح يدك لوفاء وتمسك بيدك الأخرى رأسك الساخن وتتذكر كل شيء.. "أريد أن أنزل إمبابة.. رأفت.. رأفت وحشني قوي.."

حذف الملف

تستعيدهم الآن في وحدتك الأربعينية.. أعوامك المعدنية التي غزاها صدأ الملل بعد أن بات رنين الساعة البهي الشقي المتألق الضاحك كئيبا لا يثير فرحا ولا شجنا..

ماذا جرى بينكما؟! صرت تشك في حبها الذي اقتنصته في اللحظة الأخيرة حينما استملتها بكذبة واخترعت خيانة لم يرتكبها شريف أبدا لكي تتصرف عنه ولا تجد سواك.. هل أحببتها أوكانت رغبة في الحصول على حاجة مهمة تمنحك الثقة بأنك تستطيع أن تكون أقوى منه لوأردت.. وهو الذي يتحدث فتتحول كلمته عندك إلى أفكار تدافع عنها وتعيش بها.. هو الذي جذبك فدرت في فلكه راضيا قانعا.. وظن أنك ستكون تابعا له.. ولكنك تمردت وانتظرت لحظة الثورة وطرده من قلبها ليكون لك مقرا للحكم.. أكانت صداقة تلك التي جمعتكما أم حرب استنزاف طويلة انتهت بخسارتك أعصابك.. كل واحد له هوية.. وأنت لم تكن سوى تابع لشريف وإيناس وحينما أردت أن تكون نمرة واحد لم تجد متعة في الحصول ولا لذة في إقصاء الآخر.. لأنه لم يكن آخر وإنما كان مساحة في داخلك تبحث عنها

وتراها متحققة في حضورك إلى جانبه.. المسرحية الوحيدة التي ألفتها في حياتك أنت الذي عشت عمرك "كومبارس" في "سيناريوهات" من حولك.. أجرت الداعرة ودفعت لها وقدمت لها الخطة ومفاتيح شخصية شريف وفي الوقت المناسب تليفون منها لإيناس التي تأتي إلى حجرة المكتب الصغير الذي يجمعك بشريف لتسويق ملابس الأطفال في محلات المنيرة.. حجرة أخذتها من أخيك تخليص حق مقابل نصيبك في محل الحرية ووجدتها فرصة لمشاركة شريف ثم التخلص منه.. تذهب إيناس وتجدهما معا.. لم يعد لها بعد ذلك غيرك تخفف عنها وتتقدم لها وتشاركك حياتك وتتجنب لك إيناس صغيرة لكي تنصرف عنك بمشاعرها وروحها وإن كانت معك في سرير واحد.. لا تعلم إن كانت نائمة أو مستسلمة لأحلام يقظة لا وجود لك فيها.. تعود لبلدك بمال يغريك بزواج جديد يكون من اختيارك الحقيقي.. إيناس لم تعد تطيقك وأنت لا تنسى أنها تحبه.. تستجدي قلبا بكرا لفتاة وحيدة تذوب قوتك في ضعفها الذي تعلنه نظرة انكسار في عينيها الداكنتين.. ماذا أعجبك فيها سوى الرغبة في نسج حكاية تكون بطلها كما كنت تفعل دوما مع أمك في بيتكم القديم لكي تستحوذ على اهتمام لم يكن أخوك الأكبر الطويل

العريض الماكر يبذل جهدا في الحصول عليه وفي كل مرة كان أخوك يكشف حكايتك وأمك تعاقبك وتزداد منك نفورا وتصيح في وجهك بجملتها المنقوشة في حفريات نفسك "يعني قصير ولئيم وغبي وقليل الحيلة لم تترك حاجة قبيحة عند أهل أبيك إلا وورثتها.."

لم تشعر أبدا برضا أمك عنك.. لكنك ستجد بعض الرضا من نادية..

أراها ساعة كل أسبوع عندما أزور أختي الصغرى التي تصر على الحياة بمفردها في شقة شارع الوحدة الصغيرة التي اتخذها أبي لزوجته الثانية الراحلة معه في طريق الإسماعيلية الصحْروي حين انقلبت بسيارته الصغيرة وهما عائدانِ من "فايد".. أختي التي رفضت أمي حتى النهاية أن نعترف بها وكانت تعاتبني إذا عرفتْ إني كنت عندها "أخوك الكبير عمره ما كسّر كلامي ولا راح لبنت وداد".. لكنني سأذهب يا أمي لبنت وداد لأنها أختنا ولأني أجد هناك نادية.. تقول إيمان ضاحكة وهي تضغط على يدي.. قبل أن تنصرف لتعد الشاي:

- حاسب على نانا.. البنت صغيرة وأنت رجل خبرة..

- والله أخوك الكبير آخر غلب يا إيمي .. وأنت عارفة أنا خريج تجارة وأنتما في آداب.. أنا عندي واحد وواحد يساوي اثنين.. لكن الحياة في الروايات والقصص بحورها واسعة..
- يعني لن تذاكر لنا "لا تطفئ الشمس" و"بيت الدمية" و"كلهم أبنائي"
- مادام ناني قاعدة معك أذاكر لكما..

نفتح "كلهم أبنائي" ونحكي.. أرى دموعا في عينيها تصب في قلبي..

- مالك يا ناني..
- لا أدري يمكن لأن اليوم عيد ميلادي.. أكملت إحدى وعشرين سنة.. لكن أحدا لم يتذكرني.. ولا أظن أنني وصلت لسن الرشد.. بالعكس أنا مفتقدة الطفلة التي ذهبت أيامها هباء..
- لا شيء يضيع منا يا ناني.. حتى الطفولة تظل في أعماقنا وتقفز في انطلاقنا مهما كان سننا.. عارفة أنت أكبر من إيمان أختي بستة أشهر هي مولودة في العام نفسه ١٩٧١ لكن في أكتوبر.. يا خبر يا نانا السنوات

تمضي بسرعة جدا.. أنت مولودة في أبريل.. يعني قبل ما يقولون عنها ثورة التصحيح التي قبض فيها السادات على منافسيه بشهر واحد.. كنت أنا في سنة رابعة ابتدائي.. والدي -الله يرحمه- أشترى لنا "التليفزيون" في إجازة نصف العام.. كان تزوج "طنط" وداد في السر.. والظاهر كان يحاول يعوضنا ويخلص ضميره بتوفير كل ما نطلبه وما لا نطلبه.. أحلى أيام عامل أمي فيها كانت هذه الفترة ولما أمي عرفت وخيّرته بينها وبين أم إيمان أختار أم إيمان.. يوم ميلادك بالتحديد كان يوم أول حفلة أراها لعبد الحليم في "التليفزيون" على الهواء مباشرة كما يقول مذيعو كرة القدم.. يومها حليم غنى "موعود" أكثر أغنية أحبها له.. وسهرنا كلنا في البيت نتفرج عليه..

- لكن "موعود" هذه حزينة قوي..
- في واحد صاحبي اسمه هاني مرة قال لي ونحن في ثانية ثانوي إنها أغنية سياسية..
- سياسية..؟!

- نعم.. قال إنها مرثية لعبد الناصر.. الحلم الذي ضاع والليل المحيط بنا بعد النكسة والمشوار الجديد الذي لا نعرف آخره والبكاء والضياع وأنين السنين والناي الحزين..
- تصور جايز يكون عنده حق.. يعني الأغاني العاطفية هذه التي تهيم فيها المشاعر يكون لها معنى سياسي..
- يجوز.. حتى الأفلام الرومانسية والكوميدية.. هاني يومها قال لي إن "شنبو في المصيدة" فيه فكرة مهمة وهي إن الزعيم "فؤاد المهندس" في الفيلم رجل طيب لا يعرف شيئا عن العمليات التي يقوم بها من حوله وهذه كارثة.. و"أبي فوق الشجرة" له خلفية سياسية.. لأن الأب ممكن يكون وقتها القائد.. والشجرة تكون ابتعاده عن المسئولية والانجراف خلف الهوى الشخصي وإهمال شئون العائلة..
- بمناسبة شئون العائلة.. ألن ترد أم إيناس..؟
- لا.. موضوع أم إيناس خلص بالنسبة لي..
- يعني ستتركها للأبد..؟!

- هي طلبت الطلاق وخلاص تم.. كل واحد فينا راح لحاله..

- وابنتك..؟!

- سأراها.. وأتابعها.. وأوفر لها كل شيء.. أنا مسئول عنها.. الواحد مفروض يكون مسئولا عن كل حاجة حوله في العالم وليس مسئولا عن ابنائه فقط.. هكذا تقول المسرحية..

- صحيح في واحد يشعر أنه مسئول عن الناس كلها.. إذا كان في آباء لا يعرفون شيئا عن بناتهم..

تقول نادية بصوت كهربائي متهدج حاد كأوتار جيتار تكاد تتمزق حين تعصف بها أصابع قاسية لعازف يشارف الجنون.. أحاول التخفيف عن هذا الاختناق الذي أعرف بعض خلفياته.. أقول وعيناي تترددان مابين احتوائها والهرب منها:

– تقصدين بابا؟ أكيد عنده ظروف..

– ظروف! أنا آخر مرة رأيته كنت في أولى ابتدائي.. بنت بضفيرة عندها ست سنوات.. أتى إلينا بلعب كثيرة.. أكلنا وشربنا وضحكنا ولاعبني.. ثم قال سأسافر أياما وأعود.. بكت أمي.. يعني خلاص.. راجع لأولادك الكبار وأمهم.. ولن نراك

أبدا.. طيب وما ذنبي.. وماذا فعلت البنت الصغيرة.. حرام عليك.. قال لها سأعود بعد أن أتخلص من المشاكل التي يفعلها أهلها معي.. أمي كانت تعرف أننا مشكلته الوحيدة.. وحينما يخرج من حياتنا ستعود إليه حياته القديمة.. سيرضى عنه أولاده الكبار.. وسيدير ميراث الست كما كان يفعل.. وخرج بلا عودة.. تليفون كل شهر.. كل سنة.. وجنيهات مع الساعي.. لا أعلم لماذا تزوج أمي.. هل كان يعاقب زوجته.. هل كانت نزوة أو مراهقة جديدة.. وأنا.. لم أتكلم معه أبدا.. عارف معنى أنك تحتاج لأب وأنت متأكد أنه موجود مع واحدة كبيرة يمكن لا تحتاجه مثلك المفروض أنها أختك.. ومع واحد تزوج وعمل وأنجب وعنده ولد في سنك المفروض إني أخته وعمة هذا الولد الذي لم أره.. عارف ماذا يعني أن تجد كل بنت من زميلاتك في المدرسة لها بابا.. لها أب تأتي معه أحيانا في السيارة.. يفتح لها الباب.. يضمها بشدة.. يطبع على جبينها قبلة حانية.. خلي بالك من نفسك.. وأحيانا يمشيان معا.. يمسك يدها الصغيرة وحين يتركها تدخل وحدها يظل واقفا عند الباب.. هي تنظر خلفها وهو يلوّح لها بيده ويبتسم أو ينتظرها آخر اليوم ويشتري لها "الشيكولاتة" وتحكي له عن المدرسين والمدرسات وصديقاتها

والواجب.. وأنت لم تذق هذه المشاعر منذ أن فتحت عينك على أول حروف الكلام وأول مشاهد الحياة.. صعب جدا أن تجد أمك وحيدة حزينة ينظر إليها الرجال بطمع والنساء بمزيج غريب من الخوف والشماتة.. وكأنها كبش فداء لحياتهن المستقرة مع أزوجاهن الطيبين وأولادهن الناعمين.. أنا في يوم من الأيام سأتزوج رجلا متزوجا.. سأجعله يطلق زوجته أولا بالثلاثة.. سأظهر له ضعفها.. وأظهر لها فشلها.. ثم أطلب منه أن يتركني..

تبكي نانا وهي تواصل:

- يتركني لكي يلحق أبناءه قبل أن يقتلهن الخوف والقلق والحرمان.. قبل أن تكره ابنته كل الرجال وكل النساء..

تدخل أختي إيمان بالشاي الساخن.. تحتضن نادية:

- ماذا فعلت في البنت البريئة؟

تقول نادية:

- لا شيء.. أنا افتكرت يوم "ميس" تحية ما ضربتني لما كنت أكلمك في الحصة.. أصل يومها العصا تركت علامات حمراء أثرت في يدي فترة طويلة.. كنت

شاعرة بالظلم.. ما أنت كنت تتحدثين معي لماذا ضربتني وحدي..

قلبك أبيض يا نونا ما أنا انضربت كثيرا.. كلنا انضربنا في المدرسة.. وقدامك بلبل.. هو أيضا انضرب قبلنا بأكثر من عشر سنوات في المكان نفسه ومن الأساتذة نفسهم.. أساتذة أحمد عرابي التي مازلنا نذهب إليها ونسلم عليهم حتى الآن.. وأكيد يده فيها علامات كثيرة تذكره بأعماله ال.. الحلوة طبعا في المدرسة.. أحك لها يا بلبل عن مجموعتكم.. هه.. أحك.. أقول لك أحسن.. اكتب ما تعرفه عن سادسة أول أيام بلبل وسامح ونوسة وهاني وسمعة وشريف وحنان ونبيلة وأمجد.. يا "أونكل" الأساتذة وجعوا دماغنا بأخباركم.. ومن يعرف يمكن غدا نقرأ عنكم روايات.. لكن شهادة حق بصراحة "ميس" تحية كانت شديدة ولولاها عمرك ما كنت أخذت أول شهادة في حياتك يا نونيا.. ولم نشعر أبدا بألم حقيقي من مسطرتها..

- لماذا يضربنا الكبار؟! لماذا يفعلون بنا ما يريدون؟ وتحت شعار مصلحتنا نذوق منهم المر..

- يا نادية على أيامنا كان فيه مدرس لا أريد أن أذكر اسمه.. كان مؤذيا بلا سبب.. يسأل السؤال وكل واحد يقوم يجيب وتكون الإجابة صوابا ونظل واقفين.. يسخر منا ويحاول يوصّل لنا نحن الأولاد بالتحديد أحساسا بالضآلة والهوان.. كان فيه ناس تبكي من غير ما تتضرب.. وفيه ناس مثل هاني وشريف مهما ضربهم لا يظهرون أبدا ضعفا.. الحمد لله هذا الأستاذ مشي من المدرسة ونحن في نهاية سنة خامسة يعني في إبريل سنة ١٩٧٢ لما كنت أنت "تونو" عمرك سنة واحدة..

- كان عندنا واحد مثله يا بلبل ولم يكن يضرب إلا الأولاد أيضا وكان حريصا جدا على أن يهزأ بهم.. كان من "عينة" مدرسكم الراحل.. خلّينا في موضوعنا أكيد يا نادية افتكرت حاجة ضايقتك.. عموما يا حبيبتي الضرب من أجل الكلام في الحصة أهون بكثير من الضرب الذي يناله البلداء.. الحمد لله عمرنا ما كنا منهم..

تنظر لي نادية بانتصار وتقول لأختي:

- البلادة ليست فقط في المذاكرة.. فيه بلادة في الإحساس بالمسئولية.. على فكرة قولي "لأونكل" نبيل يرجع لعقله

ويرد مدام إيناس التي كان يعشقها لدرجة أنه سمى ابنته الوحيدة على اسمها.. حبيبة العمر.. ماذا جنت عليه الست الأميرة حتى يطلقها.. حرام عليه يدمر بيته.. زوجته وابنته لا يستحقان منه ما يفعل..هو فاكر نفسه فاضي وغير مسئول عن أسرة ويقدر يرجع يحب ويتزوج من جديد..

تجمعت الصدمات عليك يا بلبل.. إيناس الكبيرة وإيناس الصغيرة التي تموت فيها منذ أن تفتحت مشاعرها وهي مع أمها.. صورة هي من أمها في الشكل.. الطبع.. الأشياء التي تحبها.. مهما بذلت من جهد فلا فائدة.. تترك الجميع وتعود للخليج.. تغرق في العمل حتى يضيع تركيزك وتتعرض لمنافسات لا قبل لك بها وتقارير الخبير الخواجة فيك تقلل من فرص التجديد.. وتعود محطما منهارا تعلم أن أخاك يطمع في شقاء عمرك.. يريد أن يزوج بنتك لابنه وهي لا تطيق الاثنين.. تقع يا بلبل كحصان تعب من المطلع.. تقودك خطاك للأحياء القديمة يلتقطك رأفت من الضياع يقابلك يوميا ويزورك.. يذهب معك للطبيب النفسي ولا يخبر أحدا.. يا دكتور كلهم يكرهونني.. لأني أحسن منهم.. الخواجة كان متأكدا إن عندي

أفكارا تفوق عقله المحدود بالبرنامج والمحاور والساعات.. زملائي يطمعون في مكاني.. طليقتي أخذت البنت وأثرت عليها فلم تعد تريدني.. ماذا يريد مني ذاك الرجل الذي يسير ورائي.. سأرسل برقية لرئيس الوزراء أقول له فيها على كل حاجة وأخليه يرسل قوة لحمايتي..

الدموع تجري في عيني إيمان وهي تعطيني المهدئات.. تمر الأزمة ويطلب رأفت يد أختك بعدما قاربت رعايتهما لك المسافة بينهما..

"لكن يا إيمي رأفت معاه معهد متوسط".. "أنت قديم قوي يا بلبل.. فيه أحد ينظر لهذا الآن.. المهم إنه طيب وقلبه علينا.. والأهم إن البنات معاها دكتوراه ولا تجد من ينظر إليها.. الشباب غلبان يا بلبل.. أنت فاكر كل واحد قاعد مثلك عشرين عاما في الخليج.. ورأفت سيكون لي زوجا وأبا لأنه قلبه "حنين" جدا.. ودمه خفيف قوي وعشر سنوات بيني وبينه ليست زمنا طويلا.. أختك عدت الثلاثين"..

يسكنان معا بشقة شارع الوحدة.. هي مدرسة عربي بمدرسة "الحداد" وهو فني صيانة أجهزة كهربائية له محل صغير في شارع الحرية.. وتبقى الوحدة التي تسري في الروح والقلب

وأركان البيت.. أحاول التخلص منها بمكتب صغير للدعاية كل موظفيه بنت سكرتيرة وولد خريج جديد يلف على الشركات الصغيرة والساعي.. لكني كل شهرين ثلاثة أغير السكرتيرة.. أخشى أن يدس أخي لي امرأة تورطني في علاقة أو زواج عرفي أو رسمي.. الفترة الأخيرة لم تعد لي رغبة في النساء على الإطلاق لكن الأمر يحتاج الحذر.. إيمان مشغولة مع رأفت وابنهما مدحت والمدرسة..

الحياة رتيبة كما كانت بعد انفصالي عن إيناس وبدأت أشعر بتعب الأعصاب من جديد لكن الحمد لله لقيت شريف.. وجوده دعم لي حتى لو لم نلتق إلا قليلا.. يكفي التكفير عن ذنب قديم وإحساسي إنه سامحني.. لما سألت أختي إيمان عن نادية قالت لي متزوجة وعندها توأمان واحد منهما على اسم أبيها والثانية اسمها وداد على اسم أمي.. الناس لن تقف عند مرحلة في حياتها يا بلبل لكنها تتصالح مع الماضي وتضمه لمستقبلها..

أقضي وقتا طويلا أمام "الأنترنت" وجدت ممثلة أمريكية اسمها "ماندي مور" تشبه نادية إلى حد كبير.. الشبه بينهما غريب جدا خاصة صورة "ماندي مور" بشعرها القصير ووجهها الذي يميل إلى الطول ونظرتها التي تجمع بين التحدي

والانكسار.. جمعت للممثلة صورا كثيرة وكل ما أفتح جهاز "الكمبيوتر" أنظر إليها..

أتذكر نظرة الانتصار الذي توهمت أنها حققته وهي تحدثني عن إيناس لقد ظنت أنها السبب وفرحت أنها انتقمت من أبيها في شخصي وتركت لها هذا الشعور لأنني كنت على ثقة أنه سيفيدها وسيصالحها مع الأب الذي هجرها.. ابتسم لصورة ماندي مور وأسلم علي نادية.. وأتذكر كلامها عن الأب الذي لا يسأل عن ابنته فأخطف "المحمول" وأطلب إيناس الصغيرة "يا حبيتي نفسي أشوفك.. أنتظرك أو أمر عليك في الجامعة أنا عارف محاضرات اليوم تنتهي الساعة الثامنة".. لو قالت لي أمر عليها أطير من الفرح وأرتدي أفخر ما عندي.. وأشغل في السيارة فريق "وسط البلد" الذي تحبه وأسمع أغنية "أنتيكا" فتدمع عيناي حتى تجففهما إيناس "يا بابا إذا لقيت دموعك ثاني لن أسمع هذه الأغنية أبدا وأنت عارف إنني أحبها"..

"وأنا أيضا أحبها جدا.. والدموع من الهواء البارد لأن الكلية في الزمالك أنت يا جميل أحلى طالبة درسات عليا في تربية فنية.."..

"طبعا ستذهب إلى أول شارع "أبو الفدا" وتتذكر أيام تجارة خارجية وتلقي نظرة على الجانب الآخر من النهر وتقول لي هذه مدرسة أحمد عرابي".. طبعا لكننا سنعبر النيل ونمر على الكيت كات ونلف من عند كوبري إمبابة ونقرب من المدرسة أكثر ثم أوصلك عند ماما في شارع الدكتور الحوفي.. عارفة أنه قريب جدا من أرض "الغنام" التي كنا نلعب فيها كرة.. لكن الأول بابا يعزمك على العشاء في أحسن مطعم في الزمالك.. انظري يا نونو كانت فيلا أم كلثوم القديمة هنا كنت أمشي أمامها زمان بالساعات أنا وعمك شريف.. وأصحابنا"

أتابع المسلسل العربي فأجد ثلاثة شخصيات تشبهنا أنا وشريف وإيناس.. ثلاثة يقفون معا وواحد منهم يخطف شيئا ويجري ضاحكا فيقع ويذهب إليه صديقه ويمد إليه يده لينهض بدلا من أن يعاتبه.. شكرا يا حنان.. يعني الواحد لم يضع من ذاكرة الفصل.. لكن الولد الذي أدى دوري بصراحة شكله غريب قوي وطويل مع أن الطول كان مشكلة بالنسبة لي..الحاجة الوحيدة التي نفعتني فيها قامتي القصيرة إنهم أخذوني أمثل مرة في مسرح المدرسة دور نابليون لا أصدق أنني كنت هكذا..

لا أكاد أصدق صورتي التي أراها في "الألبومات" القديمة.. علي كل حال النظر إلى الصور علمني أن ملامحنا ثرية جدا ولا يمكن لصورة واحدة مهما كانت معبرة أن تستوعب كل ما فينا من جمال وكل صورة تحتفظ بجزء ضئيل من ملامحنا.. يمكن فيه حاجة ثابتة لكن فيه حاجات كثيرة تتغير ليس بمرور الزمن فقط وإنما نتيجة ظروف "اللقطة" والعدسة والعين التي تقف خلفها.. كل واحد يرانا من زاويته..

شريف كان دائما جميلاً وقويا مهما كانت ملامحه.. أكيد هذا الولد الذي اسمه هادي مقصود به هاني رائد الفصل أقرب شخص لحنان وقتها لكن شكله مختلف إلى حد كبير عن هاني الحقيقي.. كلنا كنا من الأوائل.. لماذا خرجنا من المدرسة..؟! نفسي أخصص جائزة مالية بسيطة لأول الابتدائية في مدرستنا كل سنة.. سأقول لشريف هذا وإذا أبلغنا هاني وأمجد وهشام وحنان ونبيلة وأسماعيل نستطيع عمل جوائز متعددة فلن يبخل أحدهم.. ونفسي أجدهم كلهم حولي.. كلهم.. "ما رأيك يا نونو قبل العشاء نأخذ عصير برتقال موافقة يا جميل.."

في اليوم التالي تلقي على صور "ماندي مور" نظرة الوداع.. وتضحك.. "نزوة وعدت سلام يا نادية.. سلام يا ماندي.." قبل أن تضغط على المفتاح وتعمل لها "delete".

صدقني

كلما عاد من سفر في عمل أو مؤتمر نلتقي في حديقة النادي السويسري أو "التكعيبة" أو زهرة البستان ويتكرر بيننا الموقف..

- أمجد عزمي .. الماجور..
- سامح قاسم.. حبيبي يا أبو سامر..

نناديه "الجنرال"أو "الماجور" لأنه جاد ومنظم وإرادته قوية.. ولأنه الوحيد منا الذي دخل الجيش ضابطا احتياطيا.. أنهض وأحتضنه كأننا نلمس أنفسنا الغاربة في بحر الوقت الضائع.. نتأكد أننا من نعرف.. من كنا نظن يوما ما أننا لن نفترق أبدا.. نعيش اليوم الدراسي معا وننصرف معا وحينما يولي كل منا ظهره للآخر كي يعود لمنزله يستدير أحدنا وينادي على صديقه ونقف بين باب المدرسة الأخضر و"كشك" النور الأصفر ونتحدث ويولد موضوع من موضوع.. ويتكرر الموقف ويستمر المشهد قبل أن نفترق أنا إلى ناحية المحكمة في الجزيرة وهو إلى شارع النيل قصاد معدية "بسيمة".. ونكاد نصل كل إلى بيته بعد أكثر من ساعة.. وفي أحيان كثيرة نلتقي في اليوم ذاته مساء فنذاكر ونألف أغاني ونرسم ونلعب شطرنج.. ويوم

الإجازة نلعب كرة أنا وهو لازم نكون في فريق واحد.. وكل هجماتنا "ون تو" أحيانا نقف أمام المرمى وكل منا يعيد الكرة للآخر كي يكون صاحب الهدف.. في بعض الأحيان كان الهدف يضيع لأنني أصر على أن يحرزه أمجد.. وأمجد يصر على أن أكون الهداف.

أتذكر أيام المذاكرة واللعب والشعر والرسم.. ويتذكر أمجد الأصدقاء كلهم بأسمائهم الرباعية وكل واحد ذهب إلى أين.. نستعيد معا عالما طويلا عريضا احتضننا من ابتدائي للجامعة وحتى الآن.. عند أمجد الخبر اليقين وحافظ كل التواريخ: المناسبات لا يمكن أنساها أنت وهاني تزوجتما في سنة واحدة هو يوم نهائي أفريقيا لما فزنا على الكاميرون والخطيب كان "يعرج" في آخر المباراة وانت قبل حكاية الأمن المركزي بأسبوع.. لكن هاني تزوج المرة الثانية لما أنا كنت في مؤتمر "تكساس" أول ٢٠٠٧ كانت تلميذته اسمها ياسمين اشتغلت في الإرشاد وتزوجت قبله ولم توفق مع واحد من سنها ودوريت على واحد يكون أبا قبل أن يكون زوجا أو تسد به خانة اجتماعية.. استمر زواجه منها سنة ثم قال لها ماذا سأفعل من أجلك.. الحياة استنزفته وانفصلا بعد ما أخذت منه قرشين..

وعاد إلى الكيت كات لوحده في شقة إيجار جديد.. شريف تزوج بعد موت جدي بأسبوع والمغفل جاء ليأخذ إذني قلت له إياك.. قال لي أنتظر لما تكون أنت خلصت الجداد فوقعت من الضحك قلت له إياك تتزوج خالص أنا جدي مات وخلاص.. الولد الآن رجع من الإمارات وفتح شركة كبيرة في شارع عبد العزيز لعدد المحمول و"إكسسواراته".. غير شركة "الكمبيوتر".. نحن لا نحسد أحدا.. عايش حاليا مع زوجته الثالثة.. الأولى توفيت وهي تنجب ابنته "إيناس" والثانية لم تتفاهم مع ابنته عملت لها زوجة أب والأخيرة أكبر من ابنته قليلا وصديقتها جدا ربنا يزيد الجميع محبة.. الولد جميل هو الذي "عملهم" لأنه أخر زواجه لما قرب على الأربعين لذلك وصل لمنصب مدير إداري في أكبر شركة اتصالات في دبي.. طول عمره شاطر.. لم يكتف "ببكالوريس" الهندسة.. أخذ "دكتوراه" في الاتصالات.. و"ماجستير" إدارة مشروعات.. غير "كورسات" الجامعة الأمريكية.. كيف يجد الوقت.. نبيل فتح مكتب دعاية على "قد حاله".. ورأفت تزوج أخت نبيل الصغرى وعنده محل صيانة أجهزة كهربائية صغير في شارع الحرية كلنا نجده في أي وقت إن لم يكن في المحل ستراه في مقهى "الصانع" بالقرب من جامع

الهنيدي في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه عم "أبو المجد" الله يرحمه..

أقول لأمجد وأنت فيه واحد يتزوج يوم زواجك؟!

يرد ضاحكا فضلت أهتف مع العالم كله يجب أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل ٢ أغسطس ٩٠..

.أقول له كيف تعود؟! صدام دخل الكويت وأنت دخلت دنيا.. طيب لو كان صدام انسحب أنت عمرك ما كنت تقدر تنسحب..

يكاد يقع من الضحك وهو يقول لي "ماشية معاكم يا عم".. ثم يغير الموضوع: الولد هاني أخذ الأستاذية.. لكن ولا باين عليه.. أنت وهو يا هشام بصراحة تستحقان الضرب.. لم تخرجا من مصر.. يا عم الناس الذين كانوا أقل منكما بكثير أصبحوا مليونيرات.. أنا صعبان عليا أولادكما لكن أنتما.. صدقني الله وكيلي.. يا ابني أنا.. فاهم.. أنا أشتغلت في السعودية والخليج كله قطر والبحرين وعمان وأبوظبي.. هاني باشا دكتور من ٩٣ ولم يغيّر لأولاده شقة عين شمس والآن قاعد لوحده كالقرد في حجرة وصالة ناحية نادي ناصر.. وأنت ساكن على النيل صحيح لكن في الوراق.. حرام يا رجل.. طيب حنان قريبتك الآن مليونيرة.. كتبت في كل صحف الخليج..

وعايشة في الكويت تؤلف مسلسلات.. عارف إنت لما قلت لي إن مسلسها الأخير تقريبا عن مجموعتنا أصبحت أتابعه كل يوم.. الحلقة التي ظهر فيها إسماعيل فرغلي صاحبنا وهو يمثل دور العامل الذي فقد ابنه في الحرب كانت رائعة الولد "سمعة" فعلا أصبح ممثلا بحق وحقيقي.. أما حلقة أمس فكانت جميلة جدا أحلى مشهد فيها لما البنت "دينذي" التي مثلت دور "جيهان" تركت "هادي".. أنا اتأثرت لكن بيني وبينك قلت يستحق.. مع إنها حاولت تقنعه إنها تفعل ذلك لأنه يناسب طبيعته المزدوجة لكن الحقيقة إن شخصية "جيهان" هي الأخرى مزدوجة لأنها كانت تخشى على نفسها من عدم طموحه لأنها لو قبلت ترتبط به ستظل جزءا من عالمه الصغير وأجمل ما في الممثلة إنها قدرت تظهر هذه الازدواجية..

يروي من الحاضر للماضي ومن المنتصف ذهابا وإيابا.. وعيوننا في تواصل تام.. مرة واحدة فقط صرف أمجد نظره عني.. كأنه يهرب.. يذهب وحده ويتركني وحيدا.. حين ذكر نبيلة وهي تطوف بعلم مصر يوم المسرحية.. هي تمسك من طرف وإيناس من طرف.. ويلتف العلم حول حنان.. وكأنني

كنت أنتظر هذه اللحظة وأعرف أنه سيفعل ذلك.. تأكدت تماما من عمق حبه لنبيلة.. وعرفت يا "ماجور"..

أما أنا أمجد عزمي ياترى قصدت أن أرسل لك يا سامح إحساسي بها في لحظة ضعف أو كنت واعيا جدا بذلك حتى لا تتأثر صداقتنا إن ارتبطت بها وشعرت في وقت ما إنها كانت حلما بالنسبة لي..

حقيقي كنت أتمنى لو تتزوجان أنت وهي سامح ونبيلة.. ربما وقتها كنت سأضع حدودا لعلاقتي بكما.. ولكنك يا سامح لم تفعل.. لم تفعل لمجرد أنك لمحت يوما ما إعجابي بها.. حدثتك عنها كما أحدثك في كل شيء.. نبيلة القلب الصافي والروح الجميلة التي تستحق كل خير.. التي أتمنى لها أن ترتبط بأحسن إنسان في الدنيا.. وهل هناك أفضل منك؟!.. رأيت في عينيك مشاعر كثيرة وفي لحظة حاولت تدارك الموقف:

- تستحقك يا سامح.. أنت فعلا أكثر واحد يستحقها..
- لا ينفع.. خلاص يا "ماجور".. خلصت.. خلينا صحاب.. معرفة الرجال كنوز.. هو أنا سأبحث عن أصحاب من جديد.. هذه المواضيع قسم ونصيب.. غيّر الكلام يا "ماجور"..غير "الحجر" يا "تجرو"..

كل واحد فينا الآن عنده بيته وأولاده.. وذكرياتنا المشتركة.. حلوة كلمة المشتركة هذه تذكرني بمدرستنا القديمة المشتركة.. وبأيام الاشتراكية التي لحقناها..

- يا عم سامح حرام عليك.. ما الذي يعجبك في أيام شركة بيع المصنوعات والطوابير والفقر..
- يعجبني أحلامنا وطاقتنا واجتماعنا على مبادئ اجتماعية واحترام العمل والرضا وقيمة الإنسان بما يضيفه لا بما ياخذه..
- وكبت الحرية في ناس وقتها أيضا لم تستطع أن تعيش في البلد أو كانت ضحايا للنظام..
- لكن الحالة العامة كان فيها رضا والمستقبل كان فيه أحلام.. وبعض الذين خرجوا في الستينيات من البلد عادوا إليها بعد منتصف السبعينيات ليبيعوا الوهم ويضحكوا على خلق الله بنفايات العالم ويجمعوا ملايين من الهواء ألا ترى اليوم في الفضائيات وتسمع في الإذاعات "المسابقة الكبرى.. اتصل الآن وحقق كل أحلامك".. لقد نشأنا على مفاهيم مختلفة يا أمجد.. هو أيام ما كنا تلامذة سمعت عن واحد منا أخذ درس

خصوصي.. هي مجموعة المدرسة بقروش ومن لا يستطيع أن يدفعها كان يحضر معنا وعمر ما مدرس قال لواحد فينا أين فلوس المجموعة..

- أنا معك إن التحولات كانت سريعة ومن لم يستوعبها تعب وخرج من الدائرة.. مع الوقت الناس ستفهم قيم المنافسة والحركة والطموح.. ما يحزنني أن هناك من يمتلك الموهبة والعلم والأخلاق وينأى بنفسه عن الحصول على ما يستحق مثلك أنت وهاني وغيركما..
- يعني كان ضروريا أن نسافر ونشتغل في الدروس الخصوصية والمراكز ومؤسسات الأجانب التي ترى العالم من وجهة نظرها وتعمل لمصلحتها..
- العالم أصبح واحدا.. ولغة الأعمال واحدة..
- التنوع والخصوصية أساس أي وجود إنساني وإلا نكون متغافلين عن البشر من حولنا ولا نريد أن نراهم لكي ننفذ ما نراه ونقول إن العالم واحد.. هل نفرض على الأسيوي الذي يعيش في كمبوديا أن يكون مثل السويدي والفنلندي والنرويجي.. يأكل ما يأكلون ويشتري ما يشترون ويفعل ما يفعلون.. لو فرضنا ذلك عليه أن

يقتدي بهم وسيصل هذا الاقتداء لكل شيء في حياته وسيستورد من الغرب بقاياه.. ساعتها من يفهم اللعبة ويشتغل في "السمسرة" سيكون هو النجم السابح في خيرات العالم.. وهذا ما حدث في عالمنا الثالث يا أمجد "السماسرة" هم الذين اغتنوا..

- وهناك بشر في ماليزيا وكوريا وسنغافورة وتايلاند تقدموا وصدروا للغرب أنماط حياة.. الطعام والشراب والأزياء والأساس.. طيب هذا "القميص" الذي ارتديه.. مثل الذي أحضرته لك هدية "أخوه" يعني..
- عارف يا عم خيرك علينا..
- خيرك سابق.. هل قرأت أين صنع.. إنه من كمبوديا التي ضربت سيادتك بها المثل وأنا اشتريت "دستة" منه لما كنت في أمريكا.. ستجد هناك البضائع الصينية والكورية.. في كل مكان في العالم ستجد المنتج الذي يمثل بلاده.. الحكاية ليست مؤسسة واحدة فرضت وجهة نظرها كما يتصور البعض.. هو السوق مفتوح صحيح لكنه حرب يحتاج إلى منافسة شرسة للدخول والاستمرار والبقاء والتطوير.. عالم اليوم غير العالم المغلق الذي كنا

نعيش فيه لما كنا في أحمد عرابي من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ كلمة الانفتاح عندنا استهلكت بمعنى واحد مثل كل حاجة استهلاكية لكنها ليست بهذه البساطة أو السذاجة سواء من جهة الذين استغلوها أم من جهة الذين ضاعوا ولم يستطيعوا التغير.. الكلمة كانت تحتاج لخطاب يوصل نظريتها للناس وتتحول لقضية قومية حقيقية نعبر بها للعالم لا أن يخطف بها المستغل أو يرفضها محدود الأفق..

- الذين يصدرون لأمريكا وأوربا من آسيا وأفريقيا معظمهم رجال أعمال غربيون يفتحون مصانع وشركات في الشرق.. يعني منهم فيهم.. يا حبيبي العالم الذي تتحدث عنه هو العالم المغلق الذي يصعب اقتحامه إلا بإذن وثمن.. مهما قلت أنا كنت سعيدا بعالمنا القديم الذي وصفته بالمغلق وهو عمره ما كان مغلقا طول عمرنا في مصر مرتبطين بحركة العالم ولا يمكن ننكر ذلك ولكننا نحتاج لاستلهام طاقتنا كي نضع صورتنا أمامنا ونحن نسعى لتشكيل نفسنا وتقديمها للآخرين.. ثم أنت أجبت لما قلت إن التطبيق الانفتاحي عندنا قام على مفهوم واحد

وسمح للمستغل يعدي وتعب أناسا كثيرة مخلصة ظل بعضها يؤدي واجبه راضيا وبعضها الآخر ضاع نفسيا واجتماعيا..

- يا سلام لو طاقتك في الكلام هذه تحولت لعمل.. مجاميع ودروس ومراكز وجهات استشارية ومشاركة في مشاريع التطوير..
- وهل هذه الأشياء مفتوحة للجميع..؟! في حاجات فيها صعب مجرد التفكير في دخولها..
- المنافسة يا حبيبي.. العلاقات.. طيب أنت "محمولك" مفتوح أو مغلق..
- مفتوح..
- لكن ولا سمعنا اتصالا واحدا بك من ساعة ما دخلنا المقهى.. أنا "محمولي" صامت.. انظر.. ٤٧ مكالمة لم يردعليها منذ أن جلسنا معا.. يا ابني أنت متجمد.. وهاني أيضا كل ما أشوفه أقول له هذا الكلام والكارثة إن سيادته أستاذ دكتور يعني كان بقليل من الحركة يستطيع الدخول في مائة مؤسسة.

- ولو أنا سعيد بدوري المحدود وطاقتي المستهلكة مع العيال الغلابة في المدرسة التجارية.. ما هو ضروري يا أمجد يكون فيه اختلاف أدوار.. هناك الناس التي تسافر كل يوم مع شركة ومؤتمر وعقد وسياحة.. وهناك من يعمل في مجاله الضيق ليحافظ على تماسك المجتمع..
- تفكيرنا المقيد يجعلنا نظن إن وجود الإنسان في مكانه داخل العمل هو الذي يحافظ على هوية العمل نفسه وهذا مفهوم خطأ في الإدارة العمل هو العمل تنظمه اللوائح الصادرة عن رؤية ولا يستمد كيانه من وجود فرد بعينه.. لو لم تكن في مدرستك سيكون هناك آخر يؤدي الدور نفسه يعني أنت لما تكون طموحا ستفتح الباب لفرص عمل لغيرك.. عارف هذه الفكرة هي أساس الاحتراف ومفهوم الاحتراف هو المهنية..
- ستتكلم في الكرة..
- نعم.. الاحتراف عندنا يفشل لأن الناس غير مهنية وتحت شعارات عاطفية يحاول كل منهم ابتزاز الآخر.. النادي يبتز اللاعب واللاعب يبتز النادي وجماهيره.. المفروض تترك اللاعب يسافر ويجرب ويعرف حقيقته

التي يقدرها ثمنه في السوق العالمي.. يمكن هو لا يساوي شيئا لما يطلع يتكشف.. لذلك كثير من لاعبينا لا يستمر في الخارج..

- لأننا شعب عاطفي عنده انتماء..
- الحكاية لا علاقة لها بالانتماء.. بالعكس من عنده انتماء يغترب من اجل بلده سيوفر لغيره فرصة وسيحقق اسما لوطنه في الخارج وسيكتسب خبرات تؤهله لمكانة أفضل حينما يعود..
- يعني في النهاية سيعود.. خلاص يا عم أمجد أنا افترضت إني سافرت وعدت ورجعت.. لكن اللاعب الذي يظل معنا أيضا وهو موهوب ويسعدنا ألا يستحق التقدير.. أنا يعجبني هذا المكان ونظام حياتنا القديم والتقاليد التي نحترمها.. كل حاجة عشناها من زمان وتربينا عليها تعجبني..

تعجبك يا سامح أيام اقترابك من نبيلة.. وأنا أنتظرك في المقهى مرة سرحت.. رأيت أنني حضرت فرحهما سامح ونبيلة.. كنت سعيدا بهما.. وزرتهما في البيت.. كان عندهما ولد اسمه أمجد.. ولعب معي شطرنج وشاهدنا معا مباراة في

"التتس".."تعال يا عمو أمجد نادال وفيدرر".. "اسمه نضال يا حبيبي.. هذا هو النطق العربي له عارف يا أمجد أنا سآخذك معي لنادي التوفيقية..لا سنذهب إلى نادي الجزيرة.. أصل باباك فقر لكنه حبيبي.. خذ مفاتيح السيارة هدية نجاحك إن شاء الله ستكون جراحا كبيرا.."

لا أعلم لماذا عشت هذه اللحظة في أحلام اليقظة.. وأول ما دخل سامح حكيتها له.. ضحك.. يعني أنا أتزوج نبيلة وأخلف وأسمّي الولد على اسمك وأنت تقعد مع الولد على الجاهز.. يا أخي بعدك.. ومفاتيح سيارة لأمجد الصغير طيب ناد على "المتر رمزي" ينزل الشاي..

نبيلة وسامح وأمجد ثلاثي لا نكاد نفترق.. كان إسماعيل يحرجنا وهو يضحك.. مرة ينظر لي ويكمل: "الله يعوض عليك يا حلو" ومرة يقولها وهو ينظر إلى سامح.. ويظل اثنان من الثلاثي يلتقيان في غابة النادي الهادئ النائم في أحضان الكيت كات أو صهد المقهى الصاخب في وسط البلد..

- عندي لك حاجة مهمة.. الأول اطلب لي "شيشة"..
- أنت بطلت التدخين من سنة..

- عارف.. اطلبها.. خليها جنبي تعمل "جو" يا أخي.. أنت صحيح مدرس رياضة مالية معدوم الخيال..

- خلاص يا ملك "الديموجرافيا".. والله ما أنا عارف "الديموجرافيا" هذه ماذا تكون..

- ما الذي أدخلك أنت في الحاجات العصرية.. أنت آخرك "إمساك الدفاتر".. خذ "الأنتوسيد" يفك عنك.. ودعني أقول لك على المهم..

يضع أمامي ديوان شعر بالعامية.. ديوان شعر ل.. لنبيلة وعليه إهداء: "إلى القوارب الثلاثة التي مازلت تبحر للمرافئ القديمة".. ويحكي لي:

- قابلتني من أسبوعين بالصدفة يا "سموحة" وأعطتني نسختين من الديوان.. أنت وأنا.. قلت لها لا أراه كثيرا.. عملت نفسي يعني كثير المشاغل ولا قت لديّ للاهتمام بسيادتك.. قالت ستجد طريقة.. وسنلتقي قريبا كلنا.

- وكيف حالها؟

- عملت في حاجات كثيرة تدريس وسكرتارية وترجمة وصحافة وتزوجت وانفصلت ورجعت لبيت إمبابة القديم.. بيت أسرتها في ميدان "التروللي" قصاد مدرستنا

الثانوية.. أنت فاكر طبعا أن والدها -الله يرحمه- الذي كان يدرس لنا الرياضة في إمبابة الإعدادية الحديثة ما هو مثلك الأعلى.. مات ونحن في أولى ثانوي.. أخوها الوحيد هاجر كندا بعد ما خلص تجارة القاهرة وأخذ دبلومات في الإدارة والتسويق.. ووالدتها -الله يرحمها- ماتت بعد الولد ما هاجر.. يعني نبيلة تعيش الآن وحدها.. ورجعت لحياتها ولنفسها.. وتتغلب على وحدتها كما يفعل المثقفون بحضور الندوات والجمعيات الأدبية وبدأت تعود للإبداع.. أنت فاكر طبعا إنها شاعرة حقيقية لكن الحياة بعد الزواج استهلكت طاقتها.. لما انفصلت كتبت عن تجربتها وعملت ديوان شعر بالعامية. طبعته أول مرة على حسابها وله الآن طبعة ثانية من دار نشر في وسط البلد.. جميل قوي وصادق جدا وحضرت معها ندوة عنه كان لها أثر إيجابي بالنسبة لها وبالنسبة لي أنا أيضا.. أنت عارف كل نجاح كان واحد منا نفسه فيه هو نجاح لنا معا.. وإن شاء الله نقابلها مع بعض.. طبعا ستكلمها.. هي كتبت لنا التليفون جنب الإهداء.

تجمعنا الأيام من جديد نبيلة وسامح وأمجد.. كأننا لم نفترق.. نحضر الندوات ونسمع الكونسير ونشاهد المعارض ونقارن بين الأجيال ونسخر من بعض آرائنا القديمة ونشارك الشباب حماسهم في الحديث.. نحكي ونضحك وتدمع العيون وتختلط الذكريات بالأحلام..

بعد كذا لقاء ثلاثي جديد.. يقول لك أمجد:

- لم تكن مصادفة..

- عارف.. نبيلة قالت لي إن سيادتك دورت عليها والحمد لله اتجمعنا يا حلو لكن يا ترى ممكن نعيد الزمان ونسقط ما نريده؟!

- مستحيل! لأن عندنا حاجات لا يمكن نعرف نتركها.

- قصدك البيت والأولاد.

- والضغط والكوليسترول والقولون وحاجات كثيرة جعلت الماضي ينفصل عنا.. سنصبح فيه غرباء.

يسرح أمجد في دخان الكاكاو وتتأمل يا سامح رائحة الينسون الهادئة ولونه المحايد.

- تصدق يا أمجد.. ساعات أفكر بجد في الانفصال عن "المدام".. لم تعد بيننا مساحة نفسية نشترك فيها.. الأولاد

كبروا ولهم عالمهم وعلمناهم والحمد لله.. المدام حققت ما كانت تريده.. عندها حاجات باسمها أنا لم أصرف على أولادنا قرشا واحدا من مرتبها ووصلت الآن لدرجة إدارية متقدمة في سن مناسبة جدا.. طيب وأنا ماذا فعلت؟!.. لا أدري إن كان ما تحقق حولي هو ما كنت أريده من زمان ونحن أطفال وشباب.. وأنني شاركت في صنع هذا العالم فعلا.. أو أنني تبرمجت وفقا لآلية لم يكن لي فيها خيارات حقيقية..

- طبعا سيادتك لم تتزوج عن حب..
- الحب العاطفي الجميل كان أيام زمان.. لم أعرف له مذاقا مع أية امرأة.. أنت فاهم طبعا.. حتى نبيلة أنا لم أصرح لها بحب أبدا أنت أيضا عشت تجربة مماثلة يعني عرفت الحب دون أن تصرح به..
- لا أنا احترمت"كاثرين" وأعجبت بها قبل الزواج وأحببتها بعد الزواج.. صدقني.. مرحلة زمان عمرها ما وقفت بيني وبين الدنيا.. هي لحظات نستعيد فيها نفسنا ونكمل.. أنت بالنسبة لي لست صديقا من أيام زمان وإنما صديق أساسي متكرر ومتجدد واحتاجه على

طول.. لكن ما مر علينا زمان ولن يضيف إلينا اليوم نستطيع أن نتجاوزه..

- اتفقنا.. زواجنا جاء نتيجة لاحتياج.. الوحدة.. ضغط الأسرة والناس وإحساسك بإنك لازم تفعل مايراه من حولك.. حاجات مادية واجتماعية.. لكن نفسي أنا.. داخلي أنا.. كان دائما في عالم ثاني أتمنى أكون موجودا فيه.. ياترى أنت جربت هذا الشعور؟!

ينظر لي أمجد بدهشة مصطنعة..

- صدقني.. وأنا في الطريق إلى هنا كانت كل هذه المشاعر تتصارع في نفسي.. كنت أبحث عن الكلام الذي سأقوله بها.. وكنت واثقا أنك ستساعدني .. لكن ليس لدرجة انفصالك عن المدام.. أصل أنا أيضا أفكر في هذه المشاعر.. لكن الانفصال لا يجوز.. بيني وبينك لا يصح أن تنفصل بعد هذا العمر.. يعني ستتزوج من جديد.. دع هذا الموضوع لسامر ونورهان.. يبقى خلاص هي أزمة منتصف العمر التي حكاها عمك نجيب في "الشحاذ"..

- بمناسبة عمك نجيب هو لم يعمل أبدا خارج مصر..

- يا أخي ستعود بنا مرة أخرى لأول الحديث وتخرجنا عن موضوعنا المهم..
- وأنت يا أمجد مع سفرك المتكرر تحتفظ بشقة هنا في شارع السودان..
- "كاثرين" تموت ولا تترك هذا المكان جنب النيل والنادي السويسري في الكيت كت وساقية الصاوي وبيت الفنون والمراكز الثقافية في الزمالك.. لكن لا تخرج بي لموضوع جانبي.. تفكيرك في الانفصال لو كان جادا يكون له.. له معنى واحد.. إنك تفكر في نبيلة.. لكن والله يا سامح لو انفصلت عن أم سامر أنا أيضا..

أبتسم له بدهشة وأنا أقول:

- أنت أيضا.. ماذا.. ماذا ستفعل.. أنت يا حلو في خانة "اليك".. لا أنت "مزنوق" في الخشب..
- خشب على دماغك التي تشجع بها شواكيش الترسانة يا بتاع المتاجر الشعبية.. سأخطفك أنت ونبيلة وأم سامر والعيال.. صدقني أخطفك ونقعد كلنا سوا.. يا رجل فيه واحد يكون عنده ست مثل أم سامر وولد وبنت في الجامعة ويفكر في امرأة أخرى إلا إذا كان مجنونا..

الحكاية كلها أحلام قديمة لم نستطع تحقيقها لكن يمكن كان هذا خيرا.. حققنا حاجات كثيرة وفي الوقت نفسه ربنا أنعم علينا وتقابلنا مرة أخرى.. تقابلنا إخوة بلا مصالح ولا أغراض.. وأنت فاكر نبيلة ستقبلك لو انفصلت وقلت لها اتزوجك.. استحالة.. نبيلة أصيلة ولا يمكن تفتح بيت على حساب بيت أسرة ثانية يا قليل الأصل يا بتاع الكلام.. ستقول لك "بيتك.. بيتك" و"تهشك يا سموحتي"..الحساب يا "تجرو" عندي هذه المرة.. قم يا أخي عندنا أمسية استماع قي جمعية محبي الموسيقى الكلاسيكية.. نبيلة ستنتظرنا هناك.. صدقني كنت سأذهب بمفردي وأتركك هنا لآخر الليل لكن صعبت على قلب الماجور أخيك الكبير.

تتعانق أيدينا بقوة وعيوننا تدمع من شدة الضحك وأقول له:

من غير ما تحلف "يا "أبو الأمجاد" أنا مصدقك..

في انتظارهم

- أنت صغير.. أنت.. أنت طفل لا يمكن تتحمل مسئولية أبدا.. خليك عايش في النكت.. خليك ضايع في ضعفك.. خليك حابس نفسك وراء وهم اسمه إن أنت ابن عم أبو المجد وإنك غلبان.. ليس من حقك أي شيء في الدنيا.. ليس من حقك أن تقول للبنت التي تحبها كلمة حب صريحة حتى لا تلزمك بشيء..

أتجمد مكاني كأني حجر وأنا أسمع رجاء تهاجمني لأول مرة..

رجاء الرقيقة الوديعة الطيبة التي أتت من السويس نحيفة شاحبة مرهقة خائفة أيام التهجير.. فجمعني بها الإحساس بالفقد.. أنا فقدت أخي الكبير الذي كان أبونا يعده ليستند عليه.. وهي تركت وراءها بيتهم وذكريات الطفولة الأولى التي لا تكاد تذكر منها سوى أن أمها كانت تقف في المطبخ تردد مقطعا من"فات المعاد" التي غنتها أم كلثوم لأول مرة قبل النكسة بأسابيع قليلة..

رأيت في عينيها حزنا كالذي تراه في عيني أبيك "عم أبو المجد" فراش المدرسة الذي تجلس بجانبه كل مساء وأنت تحكي له عما حدث في الفصل وتختار المواقف الضاحكة لكي يبتسم قبل أن ينزل لصلاة العشاء في جامع "الهنيدي" ويشتري لك البخور الذي تحب رائحته من عطارة "ألف صنف".. ثم ترتمي على السرير محتضنا "بيجامة" مدحت التي تحتفظ بها في صندوق "كارتون" خاص بك.. كنت تفعل مع رجاء الشيء نفسه.. طول الوقت تضحكها.. تحفظ لها عبارات من الأفلام والمسرحيات التي تشاهدها عند فاروق صاحبك ابن "ميس" علياء سكرتيرة المدرسة والأستاذ نعيم الذي يدرس الحساب لسنة سادسة في الفترة الثانية.. فاروق هو الذي فتح عينيك على ظروفك قبل أن تتجه إلى رجاء.. كنت تنظر إلى مهار الشقراء الطويلة.. شكلها يفكرك بإنجي.. مريم فخر الدين في فيلم "رد قلبي".. حينما قلت لفاروق وأنتما تذاكران درس "كل هؤلاء يخدمون الوطن" إن "مهار جميلة قوي".. ضحك وقال لك: "طبعا يا بني أنت عارف إن مهار من أسرة محمد علي وإنها ساكنة في فيلا كبيرة على النيل والفيلا فيها أربعة كلاب "وولف" محترمة الواحد منها يأكل لحما من عند الجزار في اليوم الواحد

لا تأكله أنت من الجمعية في شهر.. يا عم عش عيشة أهلك.. أنت غرقان في الأفلام على طول.." لم تنظر لمهار بعد ذلك أبدا.. تتعمد ألا تلتقي عينك بعينها.. تعرف معنى جملة "عش عيشة أهلك.." صحيح شكري سرحان كان ابن الخولي.. لكن أصبح من ضباط الثورة.. لما تصبح حاجة يا بن عم أبو المجد حب أمثال إنجي ومهار.. يعني الحب اختيار من محدود وليس اختيارا حرا.. طيب من تكون مناسبة؟!.. وعندما تقول له إنك تجد في نفسك شعورا تجاه نادين لأنها مريضة وشاحبة وتخاف عليها جدا لدرجة إنك ساعات وأنت في طريقك للمدرسة صباحا تدعي ربنا أن تأتي ولا يحدث لها شيء.. يقول لك كلنا نخشى عليها لأن عندها القلب لكن هي غريبة وتحب توقع الناس في بعضها وأنت بالنسبة لها فقير جدا يا رأفت عندهم بيت ملك ووالدها موظف كبير في المطبعة الأميرية..

تقابلك رجاء ببساطتها وحزنها ورقتها وإقبالها على شخصيتك المرحة.. تقول لك إن الناس كلهم في السويس دمهم خفيف.. وإن إسماعيل ياسين الذي تعشقه وتقلده من أجلها ابن بلدها..

كانت تتقبل مني كل شيء.. كانت تلتهم كلماتي وأنا أتحدث عن الناس والحياة والأحلام والحب والصداقة.. وتلمع عيناها إعجابا وحماسا كأني صحيفة لشخص واحد.. محطة إذاعة وهي المستمعة الرائعة المخلصة.. أنا كل أبطال ساعة لقلبلك "أبو لمعة وبيجو وشديد ومدبولي والمهندس"..

الآن رجاء تصرخ في وجهك الذي كانت تحتضنه نظراتها مثل أم تبحث عن ملامح ابنها الذي تعيش له فقط.. أول مرة تسمع هذا الكلام من إنسان.. تلتمس في عينيها رجاء صديقتك التي تعرفها فترى مساحة سوداء عميقة وشعاعا فضيا وحيدا يرق ويشف ويذوب ليصبح نقطة ماء صافية تعكس صورتك الجامدة قبل أن تتمزق على رموشها وتلثم صفحة خدها المشتعلة:

- أنا أعرفك أكثر من نفسك.. أراك من داخلك وعارفة تماما حقيقة مشاعرك ومتأكدة إنك لم تعش هذه الحالة مع غيري وإنك لو ابتعدنا ستتألم طول عمرك وستتذكر أيامي وتحكي عني ويمكن تكتئب وترفض الحياة.. عارفة مكانتي عندك.. عارفة إن حياتي الحقيقية جواك.. في قلبك وروحك.. وعارفة إني أسكن فيك.. لماذا تريد

مني أن أهاجر مرة أخرى.. أهاجر من بيت لقيته في قلبك..

جاء وقت الفراق يا رأفت البنت خلصت "الدبلوم" وأنت مازال لديك عامان المعهد وسنوات عمل ليكون معك قرش وأهلها الغلابة سيرحبون بأول عريس لديه حجرة في "البدروم" ويستطيع أن يشتري لوازمها ويأخذ المسكينة "بشنطة هدومها" القديمة.. فما ميزتك يا ابن أبو المجد..

لم يكن هناك ما يميزك يا رأفت إلا دمك الخفيف.. كل واحد فيهم عنده شطارته وشخصيته.. وكانت مشكلتك هي الاكتفاء بتأملهم وأحيانا تقليدهم لكي تسخر من قوتهم.. وجدت نفسك هكذا مقلدا.. كل حاجة عندك تتحول إلى نكتة.. ساعات تقلد المدرسين والمدرسات وساعات تقلد أصدقاءك وزملاءك.. وهم يحبونك على كل حال أو يشفقون على الولد الضعيف الذي ضحى أخوه في الجرب من أجلهم.. أخوك قدم نفسه لبلده فماذا ستقدم أنت.. كنت تجد نفسك معه.. أحاديث هذه الغرفة لم يعشها سوى أنت وهو.. نجاحه في المعلمين حبه لصفاء.. أمله في أن يشتغل مدرسا في المدرسة نفسها التي يشتغل فيها أبوك عاملا وحارسا.. وأبوك يرتاح أو يرجع بلدكم التي تجاور "القناطر"..

كلامه وهو يتنهد على حالنا " غرباء نحن يا عم "أبــو المجــد" بأسمائنا الأرستقراطية "أبو المجد ومدحت ورأفت" ولكننا هنا في القاع".. قلدت أسماءهم يا أبي فسكنا في منازل لــم نجــد فيهــا أنفسنا..

ومتأكدة إنك لا تجد نفسك إلا لما أكون موجــودة.. وإن الكلام الجميل الذي أتعلمه منك لا يمكن تعــرف تقولــه لواحدة غيري.. حتى نكتك.. حينما أكون معك تقولهــا بروح ثانية.. لكن أنا يا رأفت إنسان.. لحم ودم.. بنــت نفسها تسمع كلمة صريحة.. نفسها تشوف نظرة الولــد لحظة اعترافه بحبه لها.. عارفة إن كثيرين يكذبون وهم يقولون هذه الكلمة لأول واحدة تقابلهم.. ولكني متأكــدة إنك صادق.. .

صادق أنا ولكن هل يكفي الصدق؟! لم أفعل شيئا بعــد يــا رجاء أستحقك من أجله.. كل ما أفعله تقليد.. في الكرة أيام أحمد عرابي كنت أقلد إبراهيم عبد الصمد ولما طلع مصطفى عبــده في المكان نفسه كان طويلا وسريعا فلم أستطع تقليده.. تركــت الكرة وذهبت لفريق التمثيل كنت دائما في الخلفية مع المجموعة فليست لي ملامح مميزة.. في إمبابة الثانويــة الأســتاذ كمــال

مشرف الفريق صوته تعب معي "يا بني لا تقلد أحدا".. غدا سيكون زملاؤك نجوما سمعة وسليمان وفاروق.. أما هاني وشريف وجميل ونبيل فسيصبح لهم شأن.. وأنت..

- أنت الذي تعرفني أكثر من نفسي.. لم تقلها أبدا مع إن كل تصرفاتك تقولها.. كأنها سر.. كأني سأحاسبك عليها..لا لن أكلفك شيئا.. لا أريد إلا هذه اللحظة وهذا الشعور.. وأتمنى أعيش طول عمري أفتكر صوتك ونظرتك وحيرتك ومقاومتك لنفسك لما قلتها.. عارف كأنك خارج من نفسك وأنا سأستقبلك.. كأم ترى مولودها لأول مرة.. ماذا يعيبك؟ إنك ابن الرجل الطيب الفقير.. لايهم هاني والده موظف أمن في فندق بأسوان وشريف والده سائق في سفارة ونبيل أبوه بدأ بمحل "موان" صغير في شارع الحرية.. والدك يعمل في المدرسة مثل المدرسين والوكيل والناظر.. وأنا لم أطلب منك أي التزام أنا أريد كلمة أنتظرك بها طول العمر..

تصمت رجاء وتجلس وتمسح عينيها كأنها تلملم ملامحك المتساقطة من سحابة متعبة.. تهمس:

- انس ما قلت.. أنا آسفة.

تنهض وتنتزع من يأسها ابتسامة جريحة ذابلة وهي تمد يدها لتسحب الشريط من جهاز التسجيل وتقول:

- هذه أغنيتي أنت اشتريتها على اسمي.

تمضي وهي تؤكد لي إنها غير غاضبة.. أقف في السطح منصرفا عمن حولي..من بعيد كانت أضواء الليل قد بدأت تتسلل إلى مياه النيل وذاب اللون الذهبي في دوامة زرقاء تجري في طريق بلا نهاية.. أستعيد نظرة رجاء ودموعها وأتذكر الكلمة التي لم أقلها لها أبدا ولم أستطع أن أقولها صريحة لأية امرأة..

أراها في صفحات الماء المنسابة التي تقلبها أمواج هادئة لكنها ذات إرادة وإصرار.. رجاء عروس البحر في كامل زينتها وبهائها.. صافية نقية تتوحد بالموج وهي تلوح لي بيدها التي تحتفظ بشريط "أغدا ألقاك".. وعلى شفتيها ابتسامة استسلام متصالحة مع القدر وفي عينيها رجاء أخير.. "لو قلتها لن أهتم بشيء..سأذهب.. قلها وقل لي لا تنتظري وتزوجي.. لا تحمل همي سأتزوج وأعيش وأنجب وتكون لي عائلة مثل كل الناس..لكن عمري الحقيقي سيكون تلك اللحظة..سأستمد منها حبا لكل من حولي.. حتى الرجل صاحب "البوتيك" الذي

سأخلص له تماما بعدما أكون له زوجة ثانية.. وبعد أن يتزوج عليّ الثالثة..

أهمس نعم يا رجاء.. كل كلامك صحيح.. أعلم أنني لن أقدم لك شيئا وأن هناك من سيشتري لك الدبلة النحيلة والإسار الذهبي الرقيق وسيدفع إيجار شقة صغيرة في منطقة عشوائية.. سيفعل ذلك ويمن عليك بأنه جعلك امرأة لها بيت وأطفال وربما يقول لك يوما "لولاي لم ينظر في وجهك رجل" وهو لا يعرفك ولا يعرف من نظر إليك وماذا قال لك ولا يعرف كلمة واحدة من الكلام الذي نطقت به أرواحنا ونحن نداوي الفقد بلحظة مرح طفولية يرويها عنا زملاء فصل الاستنزاف..

لكن الدموع ستواصل زحفها عليك يا بن عم "أبو المجد" لأنه مكتوب عليك أن تشهد النهايات فبعد أن يذهب رفاق الفصل كل إلى منزله تظل مع والدك تدور معه في أرجاء المدرسة فتجمع الأوراق المتناثرة وتعيد كل شيء إلى مكانه برغم صياح أبيك "يا بني أنت وظيفتك تلميذ تحضر وتذاكر وتنجح وأنا وظيفتي فراش أنظف وأحرس"..

أنا ابنك وسأعود معك آخر اليوم.. نصيبي وأنا راض به يا عم أبو المجد مثلما كان نصيبي أن أكون الوحيد الذي أرى

نادين في لحظة النهاية فأعبر الشارع جريا لأتلقاها بين يدي وأسمع همسها "رأفت خذ حاجتي وقل لماما".. قبل أن تذهب في رحلتها الأخيرة.. أما رجاء فلم يبق منها إلا اسمها الرباعي في صفحة من جريدة صباحية تنعي ضحايا عبارة الموت وستطبق يدك على الورقة متمسكا ببقايا زمنك المفقود وتضعها برفق في حافظة أوراقك مع شهادة الميلاد واستمارات نجاحك المتوسط دائما بينما ستصافح صورتها الذهبية وهي تكتب لك رسائل مسائية في قلب أمواج النيل التي تتحول لمداد سحري يوقظ فيك صوت بحر أبو جريشة الحزين ليردد في أعماقك البعيدة "فينك يا حبيبي يا دنيتنا" التي كنت تغنيها معها زمان وكأنكما تناديان شخصا ثالثا غائبا أو تنتظران فراقا غامضا مقبلا في أفق غائم.

سأنتظر.. كما أنتظر عم "أبو المجد" ابنه الذي ذهب في النكسة ولم يعد..

سأنتظر ومن يأتي منهم سيجدني تماما مثلما كانوا يجدونك كل يوم في المدرسة يا أبي تأتي قبل الجميع وتذهب بعد أن يكون كل منهم في أحضان أهله..

سأنتظر هاني صاحبك يا أبي الذي كان يستمع إليك وأنت تشكو له مني كي أذاكر وأكون مثله من الأوائل وهو يقول لك

رأفت ابن حلال ولا تخشى عليه.. هاني الذي يستحي أن يظهر ضعفا ولا يطلب شيئا من أي إنسان ويمنحنا ما معه دون أن نسأل يسألني أن أذهب معه إلى المأذون وأراه مع امرأة أصغر منه بعشر سنوات على الأقل.. "هاني.. أنت تزوجت؟!".. "نعم.. عندي سميرة وسمير وهمس".. "المدام زوجتك؟!".. "لا.. نحن ذاهبان إلى المأذون".. "ستتزوج مرة ثانية؟!".. "لا.. سأنفصل".. "غريبة.. تعرف إنها تشبه".. "لا.. لا يا رأفت.. لا أحد يشبه أحدا.. هذه أوهامنا.. نحن نقيس معرفتنا على نماذج جاهزة.. "باترون" واحد نضعه ونضع فوقه البشر والأحداث.. لا يا رأفت.. من يشبه أخاك مدحت حتى ابنك الذي أسميته على إسمه وابن مراد الذي أسماه على اسم أخيك.. لا يا رأفت.. الأصل جوانا.. الأصل هو الصورة.. والجديد خيالات لا علاقة لها بما في ذاكرتنا.. نحن الذين نمنحهم أهميتهم حينما نسمح لهم بدخول عالمنا لأننا نظن أنهم مثل من نحب".. "هاني.. يخرب بيتك.. من زمن طويل لم أسمع هذا الكلام.. لا شريف يعرف يقوله ولا نبيل.. ولا فاروق ولا أمجد.. ولا حنان قالته في المسلسل".. "طبعا.. يمكن قالوا أهم منه وأجمل.. لكن الكلام يقال مرة واحدة يا رأفت".. ندخل المكتب نحن الثلاثة ونجد "سامح وأمجد" في

انتظارنا.. يقوم المأذون بإجراءات الطلاق ونشهد أنا وسامح.. ويهمس أمجد في أذني "غدا يأتي ليتزوج بالثالثة.. التالتة تابتة.. يا رب تكون هي التي في بالنا".. ويخرجان وهي تمسك ذراعه كأنه أبوها الذي تسنده وكأنه كبر في تلك اللحظات أعواما برغم الطفل الذي مايزال يسكن بين ضلوعه ويعطيني مفتاحه ويقول انتظرني أوصل ياسمين وأعود إليك سأحتاجك الأيام القادمة.. تهز رأسك بفهم وتنظر إليه وهو يبتعد معها حتى يتجاوز الميدان.. وتمر عليه كل يوم مع إن إيمان تظهر لك لوما لا يخلو من غضب "كفاك ذهابا لصحبك الذي طلق ربنا يكفينا الشر".. تضمها بحنان "أنت بالنسبة لي حسن الختام وآخر العنقود".. يأخذك هاني معه في رحلته المسائية.. يدور حول النادي السويسري دورة كاملة.. المنطقة التي تقع خلفه شديدة الظلام ساعات تصيبني بالرعب.. مرة وأنا في أولى إعدادي كنت راجعا من أرض "الغنام" مع جار لي وكان معنا كرة "بلاستيك" صغيرة نمررها بيننا.. فجأة قفزت قطة ضخمة من داخل النادي وعضت قدم صديقي.. أصابني الفزع عندما وجدته على الأرض يصرخ.. أسندته إلى منزله وذهبت مع والدته للمستشفى وأخذ مصل "الكلب" الدكتور قال ساعتها إن القطة من

الجايز تكون مسعورة نتيجة عض أحد الكلاب لها".. أقول لهاني وأنا أمسك ذراعه "ياعم هاني الله يسترك لا نكمل الدورة حتى النهاية".. "معقول يا رأفت تكون خوافا هكذا.. سأذهب معك وأقول لأم مدحت".. "ليتك تأتي معي.. الست كل يوم تقول لي يا "أبو مدحت" إياك تذهب للمأذون مرة ثانية لنفسك.. لا زواج ولا طلاق فاهم".. "فاهم ياعم هاني".. يتسمر هاني أمام باب النادي الكبير وينظر لسيدة عجوز جدا داخل سيارة دبلوماسية كأنه رأى شبحا.. "هاني.. هاني مالك يابني؟!".. "ياخبر.. مازالت تعيش".. يقترب من باب السيارة ويهز لها رأسه وتصر المرأة على الخروج إليه.. يساعدها في النزول كأنها أمه.. امرأة أتت من عالم آخر ومن زمن غريب بعيد.. شديدة البياض والشحوب.. يربت على ظهرها بحنان ويحتضن يدها الضئيلة المرتعشة بين يديه ويرفعها إلى شفتيه بعناية طابعا عليها قبلة رقيقة.. يتحدث معها دقيقة أو دقيقتين.. ويعود يقول لي "فراو مايتس.. كنا نلتقي بها أحيانا هنا من حوالي ثلاثين سنة".. أعرف من يقصد "هاني" بضمير الجمع هذا.. فيأتي إلى رأسي المتواضع إسماعيل لأنه يمثل في المسلسل.. "سأعرف الأخبار.. وسأمر على سمعة كل يوم وسأقابله وأسأله عنها".. وحينما

نقترب من مكتبة سندباد أكاد أسمع دقات قلبه فأضغط على ذراعه في تعاطف غامض..

وسأنتظر يا عم أبو المجد حتى أقابل "شريف" عند جاري تاجر "المحمول" الذي يقدمه لي "شريف بك واحد من أهم تجار عبد العزيز شرفنا اليوم بالزيارة".. فيقول له "ماذا تفعل يا ناصر.. أنت تقدمني لأعز أصحابي".. ويدخل معك محلك الصغير ويشرب القهوة وتنهض معه وتأخذ حقيبة بلاستيك صغيرة تضع فيها لعبة أطفال آلية وتستأذنه أن تمران معا على بيت قريب بين السوق.وشارع النيل لتوصل طلبا لأهله الذين يعرفهم جيدًا.. وحينما تقتربان تكاد تسمع دقات قلبه وهو يقول لك "بيت ماما سلوى".. فتقول له "الله يرحمها.. الحاجة سلوى ربنا اختارها من كام شهر".. ثم تنادي وأنت تنظر للدور الثالث "يا شريف".. فيمسح دمعة سالت من تحت نظارته التي تشبه نظارة الملك فاروق.. وترد عليك امرأة في منتصف الثلاثينيات.. "اتفضل يا أبو مدحت".. تقول لها "أنا صلحت البلاي ستيشن لشريف.. قولي له ينزل يأخذه".. تسمع وقع خطاهما السريعة قبل أن يفتح شريف الصغير الباب "ربنا يخليك يا عم رأفت.. أنا لا أستطيع الاستغناء عنه".. شريف الكبير

تستغرقه الدهشة فتتأكد أنه لاحظ الشبه الشديد الذي يكاد يصل لدرجة التطابق بين الصغير وزميلتكما الراحلة.. تهمس في أذنه وذراعه يلمس صدرك العريض "المرحومة خالته" وتظهر أمه على الباب وهي تتأمل الرجل الواقف بجوارك "يا خبر.. حضرتك.. أنت الأستاذ شريف.. ياه أيام" يهز رأسه وهو يضع يده على رأس الصغير الذي تقول له أمه "سلم يا حبيبي على عمك شريف الذي أسمتك جدتك –الله يرحمها– على اسمه".

وسأنتظر يا عم أبو المجد عند محل "براويز مراد أبو مدحت" وحين يمر سامح قاسم عليه عائدا من تدريب نادي الترسانة الذي يعشقه ويخلص إليه مع أنه هبط للمظاليم نشرب معا الشاي بحليب من مقهى النوبيين ونحكي عن الموجودين وننتظر المفقود الذي لم يعد بعد وكانت وصيتك أن أنتظره..

في الجامعة أنت واحد في مؤسسة كلاسيكية مقيدة.. هل تظن أنك ستفعل ما تريد؟! عندك برامج ومقررات ومناهج مفروضة عليك ومحتويات تشارك فيها غيرك أيضا.. لكن العمل مريح.. وكلمتك سيتلقاها الطالب دون مناقشة ويحفظها ويمتحن فيها وتقيمه بنفسك.. يعني أنت تبحث عن الراحة والسلطة والمكانة.. "دكتور" لها بريقها الاجتماعي لكن طموحك الروحي الحقيقي سيضيع.. منافساتك مع أقلام أخرى وآراء مختلفة محدودة جدا.. مهما فعلت فأنت مفروض على الطلبة لكن الصحفي صاحب الكلمة الحقيقية الناس تسعى إليه.. أنت موهوب في الكتابة وحرام يضيع تعبك في مقررات عن تاريخ الأدب والمدارس النقدية.. لكن أنا عارفة.. أنت لا تريد أن تترك الكلية التي تعرفت عليها وقضيت فيها أربع سنوات.. عارف بعد ك
ستمل وتتمنى لو كنت مشيت في طريق آخر

